المارق

الحسن البخاري

المارق

حسن البخاري

تدقيق لغوي : د/محمود عوض الله

تصميم الغلاف : عبير محمد

خطوط الغلاف : أحمد خواجه

رقم ايداع: 978-977-6594-07-4

ترقيم دولي: 2017/2614

دار فصلة للنشر و التوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

المارق

الحسن البخاري

دار فصلة للنشر و التوزيع

إهداء

-إهداءٌ إلى طفلةٍ شاميّةٍ, سمعت زئير القصف . . هرعت إلى ساق أمها . . عانقتها معتصمة بها، لكنّها صدمت لما وجدت أمها أضعف من العبوات الناسفة!

-إهداءٌ إلى من راقب زهرةَ الربيع العربيِّ آملًا في غدٍ أفضل . . ثم ماتت الزهرةُ قبل أن يفوح عبيرها . . وخابَ أملُه !

-إهداءٌ إلى أسطرَ كتبتها . . ثم حذفتُها . . ربّما أكون أشجع في مرة قادمة . . إن كان ثَمّة مرّة !

الفصل الأول

الشام وطن الظالم والمظاليم. الثورة المجيدة العادلة المطلب ليست بالضرورة ناصرة المحق. الأرض تهدأ بعد مرور العاديات , والماء يأسِنُ بطول المكث .. ويا لجمال الحرية مالم تكن سلعة للتجارة فالربح , المزايدة بحبها , التبشير بثمارها , التخويف من آثارها . . وقمرٌ عرشهُ السحب , يرى ما لاترون , أتراه يشهدُ بما رأى إن سُئل ؟ أم يودع ضميره حيث أودعه العرب؟! استدار البدر مكتملًا فتساءلت الحشائش عن الهلال ! , وأجابت هوام الليل أن البدر -مع بهاء مظهره- إلا أنه قاتلٌ خسيس , لا يتم له بهاؤه إلا باغتيال الهلال ودهس جثته , ولأن الحياة دار عجائب يتغزّل الناس بالقاتل , ويسبحون بحمده , ويحلفون باسمه , ثم هم في غفلة عن المقتول !

خشخشاتٌ على الأرض تكادُ تشي بالزاحفين , يُسرى بهم بالليل ثعابين بين الركام ! على ظهورهم البنادق كأنها ذيلُ عقرب , تخفيهم الحشائش عن كل عينٍ اللهم إلا عين القمر .. أتُراهُ يشهد ؟!
تخفي الحشائشُ قتلة في الأرض وتلعن قاتلًا عند السحب ! واها للمقادير ..
التفت أبو قتادة إلى قائده أبي القعقاع وسأله :
- كم بقي من الوقت لنصل ؟
تأمله أبو القعقاع هنيّة .. عشرينيٌ بتقاسيم كهل , سَكوتٌ خفوت .. له عينان تذودان عن ذكرى تخنقها يداه إذ تقبض على رشاشه , تعرفه في لحن بسمته , في شردات مقلته , في صرخات همسه ..
أجابه أبو القعقاع بحزم :
- تابع الزحف .
لاحظ أبو دجانة كلامهما فقال :
- ألم نجد سوى ليلةً بدرية لنباغت عدونا ؟ نحن مكشوفون !
التفت إليه أبو القعقاع وقال بعد أن أبدى له امتعاضًا :
- إن جندنا لهم الغالبون .
بدا على ملامح أبي دجانة عدم الرضا عن الإجابة , إلا أنه أنشد يقول :
- ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . . بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ
فداعبه أبو العباس قائلًا :

- ستموت وأنت تنشد الشعر .
- تقول هذا لأنه ليس عندكم شعرٌ في روسيا !
قاطعهما أبو القعقاع مغضبًا وقال بهمس شديد :
- صمتًا ! تابعا الزحف ..
وكان أبو قتادة وقتها غارقًا في أفكارٍ زارته بلا سبب , وذكريات راودته بلا مناسبة .. جهاد مسعود , مصطفى الشريف , ياسر عبدالله! فاكتفى بالنظر إليهم متأملًا , ثم الصمت ومتابعة الزحف .
مرت ساعة حتى صاروا بمرمى حجرٍ عن العدو , عدو غافلٌ إلا جنديي حراسة ليلية يرقبان الظلام الدامس متفحصان أي حركة فيه, أبنيةٌ مهدّمةٌ أضواؤها صفراء خافتةٌ, كأن ساكنيها أشباحٌ أو شياطين, وحولها الحشائش من كل جانبٍ تكاد تبتلعها, ولا صوت إلا ضحكاتٌ قليلةٌ تنبئ بسمرٍ وغفلة, أشار أبو القعقاع صامتًا , فتقدم أبو قتادة وصوب قناصته كاتمة الصوت-ذات الصناعة الأمريكية- إلى الجندي الأول , وفي لحظة خرّ صريعًا مجندلًا بدمائه , وقبل أن يستوعب الثاني الموقف استقرت رصاصة أخرى بين عينيه فأردته .
ثم تسلل المقاتلون بين الحشائش منسابين, انسياب الماء عند المد بين ركام السفن على الشاطئ , ولما صاروا بُعيدَ أمتارٍ أطلق أبو القعاع الرصاصة الأولى فانقض الجميع على مرقد العدو مكبرين يتصايحون . فزع العدو لهول المفاجأة ! فانتفضوا يكبرون هرعين إلى أسلحتهم .. تصارعت الرصاصات وتلاحمت الأبدان وغاصت الخناجر

في الحلوق عند الاقتحام , واختلطت صيحات التكبير من الجانبين .
. الله أكبر الله أكبر ! وفي الشام ترى عجبًا ويرى الناسُ ما لا يُرى !
مضت دقائق من القتال والتصارع تحت أجنحة الليل حتى استتب الأمر لسرية الفاروق بقيادة أبي القعقاع , وصار الجيش الآخر بين قتيل وجريح وأسير .. وفي زهو النصر وارتفاع الأصوات بالفرح والتفاف الجنود حول قائدهم المظفر , وعلى حين غفلة من الجميع , رفع أبو قتادة مسدسه وصوبه ناحية قائده أبي القعقاع , مسرعا ومتوترًا وضع إصبعه على الزناد .. رآه أحد الجنود فانطلق يعدو نحوه كالسهم , ثم انقض عليه فأدركَ يده مع لحظة إطلاق الرصاصة , بالكاد اهتزت يده .. أصابت الرصاصة أذن القائد ثم تابعت طريقها .. ذُهل الجميع وحلت لحظة من الصمت المتفجر بالتساؤلات , والتفت أبو القعقاع خلفه حيث استقرت الرصاصة ليجدها في رأس مقاتل من جيش العدو كان قد اختبأ خلف جدار ويستعد لاغتياله ! سريعًا انفضّ الصمتُ كما انعقد , وعلى عكسه استمر العجب .
. توجه أبو القعقاع إلى أبي قتادة مذهولا , واحتضنه , ثم قال له :
- لم يخب ظني فيك مرة منذ عرفتُك .
واكتفى أبو قتادة بالصمت والابتسام, والنظر إلى الجندي الذي دفعه ظانًا أنه سيغتال قائده , بينما سارع الجند بتضميد أذن قائدهم , وأقبل أبو دجانة وأبو العباس صديقاه يهنئانه مرة على نصرهم ومرة على إنقاذه للقائد .

*****

بالفجر عاد الجند المنتصرون إلى ثكناتهم منهكين ، كلّ يبحث عن الراحة، وتختلف طرق الراحة باختلاف الناس ، فمنهم الذين يرتاحون بعناق وساداتهم والنوم، ومنهم الذين يرتاحون بمداعبة الماء لأجسادهم عند الاستحمام، الاستحمام بالطريقة البدائية بعدما فسدت البنية التحتية للمياه والكهرباء في حلب, ومنهم الذين يرتاحون بتلاوة القرآن، وللعشاق طريقة واحدة للراحة لا ثاني لها .. الأنس بمعشوقهم والقرب منه.!

فما كاد أبو قتادة يضع ملابس المعركة ويغتسل اغتسالا سريعًا يعيد نشاطه إلا واندفع إلى حاسوبه اندفاع سمكة في الماء بعد انتزاعها منه ، بلهفةٍ فتح حسابه على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك وفورًا أرسل رسالة لجهاد :

- اشتقت إليكِ

رقص فؤاده طرِبًا لما رآها تكتب له ، وتساءل كم هو مليء بالتناقضات؟!

ردت جهاد:

- انتظرتك طويلًا! أين كنت؟!

- تعلمين أني كثيرًا ما أتأخر في عملي ، ويعلم الله أنك لم تغيبي عن خاطري لحظة.

- أنا أيضًا اشتقت إليك، لكن لا أدري إلى متى!!
- إلى أن يرزقني الله من عملي ما أستطيع به أن أستعد للزواج وأتقدم لكِ.
صمت قليلا ثم تابع:
- أتعلمين؟ بينما أنا منهمك في العمل تذكرت أيامنا الأولى، يوم رأيتك أول مرة!
وقال لنفسه كم أود أن أرى ابتسامتها الآن، هلّا كانت هذه المواقع قادرة على نقل المشاعر قدرتها على نقل الأحرف.
أجابته مسرعة:
- حقا؟! كيف؟ احكِ لي.
- تذكرت لما اصطحبني د.مصطفى إلى عيادة د.ياسر لأتعالج من الإدمان، وكيف كنتِ يومها جالسة على كرسي السكرتارية كملكة على عرشها!
- هههههههه لا تبالغ!
- لم أبالغ، أتذكرين كيف اختطفتِ قلبي يومها؟!
- لم أفعل شيئًا، أنت تتهمني بالباطل لأنك فاشل في التحكم بقلبك.
- بل فعلتِ أيتها السارقة الصغيرة، وسرقت قلبي.
- هاك هو، خذه إذن!
- لا أستطيع.
- هههههه أرأيت؟ أنت الجاني على نفسك.

صمت لحظة يتذكر مصطفى الشريف، ترى في أي بقعة وصَفٍ هو الآن في خضم هذا العبث؟!

ثم قال لجهاد:

- هل سمعتِ شيئًا مؤخرًا عن د.مصطفى الشريف؟

- لا، لماذا؟

- لا أدري، أشعر أني بحاجة إلى الحديث معه

غريبة !-

- ليس غريبا , إن له في عنقي منة لا أستطيع ردها له، تعلمين أني كنت مدمنا شرهًا لا أكاد أفيق,حتى هداني الله به.

- أتريد أن تستفزني بتذكيريبعلاقاتك النسائية القديمة؟!

- لا والله يا عمري، بل إني يوم رأيتك نسيتها كلها.

- حقًا؟! وما أخبار دبي؟ أظنك مرتاحًا للعمل هناك كثيرًا، وأتساءل إن كانت رؤيتك لي قادرة على غضّ طرفك عن الفتيات عندك!

تبسم متعجبًا من سرعة انفجار غيرتها وقال لنفسه : آه من النساء , ثم قال:

- ماذا تريدين يا جهاد؟

- أريد أن أراك يا محمد، الشوق أهلكني!

- قريبًا يا نور عين محمد.. قريبًا.

ثم تابع ؛

- أتعلمين؟ .. كم أود أن تري نفسك بعينيّ ، لتتأكدي أنه لا يمكن

لمن فتنته أن يرى غيرك من النساء.
- لا حرمني الله من عينيك.
انقضت ساعات الغزل سريعًا رغم طولها، وقال لنفسه ليتها تمضي ببطئ ساعات الزحف بين الحشائش، ثم انتبه أنه لم ينم والشمس ،تكاد تستقر في كبد السماء
بحث عن حساب مصطفى الشريف ثم أرسل له رسالة:
- السلام عليك.
وخلد للنوم بعد صراع سريعمع ضميره، صراع نشب حول علاقته بجهاد التي تكاد تأكل حسنات جهاده في سبيل الله ، وخداعه لها بأنه يعمل في دبي، وتمنيته لها بعش الزوجية قريبًا رغم أنه لا يعلم متى ستكف رقبته عن حمل رأسه، وشأن هذه الصراعات مع الضمير أن لا تكون سريعة، بل طويلة ساحقة مؤلمة، إلا أن تكرارها المستمر يكسبها سرعة ويورث النفس بلادةً فلا تشعر بألمها.

*****

في الشام تتدثر الحقيقة بدثار العبث،يناديها الضمير: يا أيتها المتدثرة، فتجيب: لا لبيك ولا سعديك. في الشام يفقد الموت هيبته، وزيارة ملك الموت كأنها صلة رحم، والرصاصات الفارغة عرائس الأطفال. في الشام لم تعد شام، لم تبق إلا طرق مزدحمة، ازدحمت بحطام المنازل وافتقدت ازدحام البشر، لم تبق إلا أصداء لضحكات

كانت هنا يومًا، وبتردد الصدى بين الجدران استحال صراخًا عنيفًا. ولو تسنى لناظر أن ينظر من أعلى لوجد الرصاصات متشابكة تشابك خيوط العناكب، لا يكاد رجل يحوز سلاحا إلا ويعمله في الباقين, وبين المطرقة والسندال ثمت شعب يصرخ فتأتي صرخاته -لسوء حظه- على موجة صوتية يعجز العالم المتيم بحقوق الإنسان عن التقاطها، والشعب المجرم لا يكف عن الصراخ! يالوقاحة الشعوب.

بلدة الحضارة صارت مقبرة الركام والهدم والآلام, وسماؤها المضاءة بالمصابيح صارت مضاءة بقنابل الفسفور, أدمن الأطفال أصوات القصف, وأدمن الآباء بكاءهم وصراخهم, ينامون على بيت ويصبحون على هدمٍ .. إن أصبحوا !

دخلت بَيانُ بخفة إلى الغرفة , وأغلقت الباب من خلفها وهي تغني :

- يا حلوة يا خزاعية
مثل الشمعة المضوية
وجهك كأنو البدر
في السما العاليه

التفتت خلفها ونظرت إلى رَهَى مبتسمة ابتسامة لا تخلو من مكر الفتيات , ثم قالت :

- ماذا ؟

تورد خدا رهى , وابتسمت وقالت متلعثمة :

- ماذا ماذا !
ضحكت بيان بأنوثة ثم قالت :
- ألم تطلبي أن نتحدث على انفراد ؟
زاد خجل رهى ونظرت إلى الأرض , وتعجبت بيان من شبههما ببعضهما , وقالت لنفسها : يا بخت أخي أحمد بكِ , ثم قالت لها :
- حسنًا , أعلم أنك تريدين أن تتحدثي معي بشأن زواجك من أخي بعد أسبوع .
صمتت فلم تتكلم رهى , فتابعت :
- هلا كففتِ عن هذا الخجل ! لم أرَ عروسًا تخجل من ابنة خالتها وصديقة طفولتها !
أجابتها رهى متلعثمة :
- الأمر فقط أنني متوترة .
تأملت بيان عينيها الخضراوين كجبال سوريا الخضراء على جوانب الطرقات عند السفر, وللحظة استنشقت منها رائحة شوارع حلب العتيقة , وسمعت في أنفاسها –على هدوئها- ضجيج الأسواق .. أسواق حلب , يوم كانت حلب!
وقالت :
- أخي يحب التلقائية , فقط تصرفي على طبيعتك وسيكون كل شيء بخير .
- أتمنى ذلك !

- تأكدي أنه مع خديكِ المتوردين سيكون كل شيء بخير .
ابتسمت رهى مستحية وبحركة عفوية ضربت كتف صديقتها , ثم نظرت لأعلى واستشنقت من هواء الغرفة المُتْرَب وقالت :
- كم أحببته مذ كنا صغارًا !
ضحكت بيان وقالت مداعبة :
- من كان يدري أن يوم سعدكما سيكون وأنتما نازحان في فيلا متطرفة في حلب بُعيدَ مواضع القصف في المدينة ؟!
صمتت رهى حزينة تخفي حزنها, تتفحص جدران الغرفة بعينيها, وتتأمل حالها وحال من معها, في فيلا على أطراف حلب, بيضاء مشبّعة بالتراب, كأنها عروسٌ سقطت في الوحل عند زفافها, تحيطها أشجار البلوط وتدنوإليها تحتضنها, كانت مهجورة قبل أن يأتوا, تستعمرها الحشرات والفئرانُ وربّما بعض الضفادع!, وغاية الأماني أن تنامَ رهى على فرشةٍ فوق البلاط يلفحها البرد ولا ينقذها إلا غطاءٌ كالكفن, وتشارك بيان أمها فراشًا قديمًا وصل إليهم بعد مغامرةٍ!
لا تكاد الكهرباء تصل إلا بشقّ الأنفس, بعد مفاوضات مع الأسلاك المتشابكة ورجاءٍ لها أن تعمل .. ومع زيادة الضغط تحترق الأسلاك وتتلف, فتبدأ رحلة البحث عن غيرها, والماء لا سبيل إليه إلا دلوٌ وبئر, يُملأ به خزان الفيلا كلّ صباحٍ, ويقتّر لئلا ينفد!, ورغم صفارِ لونه ونتن ريحه إلا أنه يفي لريّ العطش والطبخ, والاستحمام حين تقدر على اختلاس الفرصة !

وكل ساعة تنتزع أرواحهم من بين ضلوعهم حين تنفجر قذيفة على بعد كيلو مترات فيدوّي صوتها بين جدرانهم! وتدوّي بعدها أصوات الأطفال مرتعدين تتلاطم قلوبهم! ثم؟ .. إن الحياة تمضي ولا تتوقف!

أفاقت رهى من أفكارها وردت مبتسمة :

- ربما سأعتبر أصوات القصف جزءًا من مراسيم الحفل .

حلت لحظةٌ من الصمت المعبّأ بالمعاني , صمتٌ يحلُّ إذا ضجّت الصدور بالكلمات , يحلُّ قسرًا ويذهب بشقّ الأنفس , مزّقته بيان فقالت :

- سنفرغ لكما حجرة في الفيلا لمدة ثلاثة أيام .

ثم ضاحكة :

- لا تحلمي بأكثر من ذلك , هناك أربعون شخصًا في هذه الفيلا الموقرة .

وقبل أن ترد رهى , طُرق الباب ونادت من خلفه أم بيان :

- بيان .. رهى .. هل أنتما بخير ؟

ردت بيان :

- بخير يا ماما .

- ماذا تفعلان ؟

ضحكت بيان بحذر ثم قالت :

- كلام بنات يا دندون !

ضربتها رهى في كتفها ثانية , بينما دهشت أم بيان , وسريعًا حلقت إلى قبس من الماضي , دندون ! ياالله ! كدتُ أنسى أن اسمي دانية لكثرة ما أنادى بأم مالك , كدت أنسى نبرتك أيها الحبيب وأنت تناديني بدندون وأبناؤنا حولنا يتقافزون كالأرانب !

نظرت إلى تجاعيد يدها مشفقة وقالت : هيييييه يا أم مالك !

ثم بصوت متعب :

- هيا يا بنات , الرجال سيعودون عصرًا متعبين يحتاجون الطعام , واليوم يوم التنظيف .

قالت بيان :

- دقائق ونلحقُ بكِ .

وتذكّرت أن الليلة موعد عودة أخيها مالك من الجبهة , فانتفض فؤادها طرَبًا , وقفت أمام مرآة قديمة في زاوية الغرفة متأمّلة آثار نضرة النعيم على وجهها , ثم قالت لرهى :

- الليلة يعود مالك .

- بسلامة وعافية إن شاء الله .

ثم قامتا لتنظيف الفيلا , كم تغيّرت حيوات الناس بعد ما كان , أولئك المدللات في خدورهنّ صرن يحملن همّ التنظيف بأيديهن الناعمة قبل أن يعود الرجال الذين يذهبون كل يومٍ إلى منتصف المدينة تحت القصف ليجلبوا ما تصل إليه أيديهم من مؤن ومتاع في بيوتهم القديمة وأسواقهم, ثم يعودون بالليل منهكين يستعدون

لرحلة الغد , رحلة الموت !
ولأننا في سوريا فلا شيء أكثر من بكاء الأطفال من وطأة البرد, مع قلّة حيلة الكبار لانعدام الدواء !
تخالط صرخات الألم أنّات اليُتم وصرخات الجوعوزفرات الحزن !
يندُر الماء وتنعدم الكهرباء فالدفء , وتعجز أمٌ عن إسكات رضيعها حين يقسم صراخه بأنه يتألّم ! لسان حالها: مُت يا صغيري فالله أرحم بك منا !
تخجل السحب لعجزها فتبكي مطرًا, يُذهب الغبار ولا يذهب الذكريات, لا يذهب دبيب الحياة تحت أنقاض الركام, لا يذهب تباريح الزمان على وجوه العجائز ,وصوت الزمان الذي يحكي عن سوريا, سوريا العروس, سوريا الألم والحسرة!
مت يا صغيري, واشكُ إلى الله قلّة حيلتي.. وهواني على الناس
مت يا صغيري, وابنِ سوريا في الجنة, واملأها بالعصافير !
مت يا صغيري ولا تعد, لا تعد .. لا تعد فسوريا التي نعرفها لن تعود !
فلأننا في سوريا ؛
يحتار الموت في الناس, أيخنقهم بالجوع أم بالحصار أم بالبرد أم بالمرض؟! أم بالدفن تحت حطام المنازل بعد مرور طائرات الموت؟! أم حرقا بعد القذائف المحرمة دوليا؟! أم خنقًا بعد الأسلحة الكيماوية؟! أم بالنزيف الحاد عند انعدام الاسعافات !

خرجت طفلةٌ من تحت الركام فوجدت أنها الناجية الوحيدة في عائلتها, فودّت لو عادت لأحضان الحطام!
وتبسّم طفلٌ لما رأى ساقه بُترت! آآآهٍ من ذاك الابتسام!

ذهبت بيان للحمام لغسل الملابس , وما كان لأظافرها أن تُقحَم في مثل هذا , وشاركت رهى أم مالكٍ وخالاتها في الطهو والتنظيف .. راقبتها أم مالك بانكسار , تأملتها وهي العروس إذ يكسو أنفها التراب , وتساءلت ماذا عساها تفعل الآن لو أن كل شيء بقي كما كان ؟ ثم لنفسها معاتبةً : ومن ذا يبقى كما كان يا أم مالكٍ ؟!
أين جمالك الذي كان يتهامسُ به فتيانُ حلب في ماضٍ ليس ببعيد ؟ وبهرجة الملابس وسواد الكحل ؟! انقلبت جميعها شحما ولحمًا فصرت جراب زعتر ! , ليتك هنا اليوم يا أبا مالكٍ لترى عيالك وقد صاروا رجالًا وعرائس , خنقتها عبرةٌ فأثارت دمعةً فتظاهرت بأنها من أثر التراب , أين معيشة القصور الفارهة يا أم مالك ؟ أين الخدم والحشم والسيارات ؟ تلاشوا, وتلاشى جمال المسجد الأمويّ بعد الدمار والحصار, أيُّ جمالٍ سيبقى لأكوامٍ من الحجارة؟ أي جمالٍ سيبقى لمئذنةٍ صمدت قرونًا وجعلتها الحربُ دكّاء, فكأنها ركعت إجلالًا لصرخة طفلٍ مزّقت أمه أمام عينيه, أو رجلٍ تفجّرت أمعاء زوجه بين يديه!, مئذنةٌ رأت عزّة الأمويين وشوكة العباسيين, فأنّى لها أن تحتمل ذاك الذل والألم؟ واختفت أنغام البائعين حين يهتفون في

سوق النحاسين والعطارين, ولذّتها حين تخالط أشجان المؤذن حيّ على الفلاح!, أنقاضٌ فوق أنقاضٍ وركامٌ فوق ركام, على عتباتِ الله في بيته أطلق الجنود قذائفهم فهدّموه, ألم يرو كيف فعل ربّهم بأصحاب الفيل؟ أين بلادنا كلها يا أم مالكٍ!, ثم معاتبةً : ومن ذا يبقى كما كان يا أم مالكٍ ؟!

*****

في القاهرة تتسابقُ موجات الحرارة مع الضوضاء في إهلاك البشر , وكلّما رجحت كفّة واحدةٍ سارعت أختها بتطوير نفسها لتلحق بها , يسيرُ الناس في الشوارع ألغامًا تنتظر من يلمسها لتتفجر , لا شيء في قاهرتنا أكثر من صناديق البضاعة والعرق والسباب , حربٌ صامتةٌ يتقارع فيها الصبر مع غباء الآخرين , والغلبة للأقوى , ولا أقوى من الغباء .

خرج آسر مع الطلاب في آخر اختبارٍ له في سنته الدراسية بكلية اللغات والترجمة , على وجهه آثار المعركة , ينظر لبقية الطلاب وهم يخرجون تباعًا من الامتحانات فيرى أشكالهم البائسة كأنهم قطط صغيرة مسكينة خرجت لتوها من غسالة ملابس . تفقّد هاتفه واتصل بآسيا , رافق رنين الهاتف نبضات قلبه في رحلته إلى حيث هي , ردت آسيا بعصبية :

- أين كنت ؟ لماذا لا ترد على هاتفك ؟!

دارت عيناهمللا في محاجرهما , وقال :
- تعلمين أني كنت في الامتحان .
- لكنك اليوم تأخرت !
- نعم , لأنه آخر يومٍ فكنت أودع زملائي .
ردت وقد استشاطت غضبًا :
- إذن فزملاؤك أهم مني !!
وتساءل في نفسه , لماذا لا نعشقُ إلا الحمقاوات ؟! ثم قال :
- ستموتين بعصبيتك هذه , تعلمين أنك أهم , لكن ليس لهذا علاقة بالأهمية !
- بل سأموت من إهمالك .
- لا مشكلة , المهم أنك ستموتين .
- يا لبرودك !
قال مازحًا :
- هل سأراكِ اليوم أم سيرحمني الله ؟!
- سيرحمك الله .
- إذن سأنتظرك في المطعم , أحضري نقود غدائك معك .
ضحكت وقالت :
- سلام يا لطيف !

أعاد التساؤل , لماذا قلوبنا لا تهوى سوى الحمقاوات ؟ ولماذا قلوبنا

تهوى ؟! أحس بملل شديد لم يجد له تفسيرًا , أين فرحتنا يوم كنا أطفالا بانتهاء الامتحانات ؟! ثم قال لنفسه : ربما لأننا قبل الامتحانات نكون كالحمار يحمل أسفارًا , وفي الامتحانات نضع الأسفار في ورقة الإجابة , فنبقى بعد الامتحانات حميرًا .. لا أسفار تشغلنا , ولا عقل يسلّينا .

وصل منزله واستعد للّقاء استعداد عريس في ليلة زفافه , لوهلة لفحه الحنين , ولوهلة غزته الذكريات , ولوهلة فقد الشعور بكل شيء , ثم استعاد طبيعته !

ذهب إلى المطعم ملهوفًا , تسابقُ أعضاؤه قلبه في الوصول , رأى قمره جالسة على كرسيها تنتظره دون انتباه لقدومه , باغتها من خلفها قائلًا :

- معك فكة اثنا عشر جنيهًا يا آنسة ؟

نظرت خلفها متفاجئةً , فلما تلاقا الوجهان أشرقا , تبسّمت فتبسّم قلبه , جلس أمامها , أسند ذقنه على يديه ناظرًا إليها , وقال لنفسه ما أجمل الحمقاوات !

قالت له :

- اشتقت إليك !

فاكتفى بالتبسم والنظر إلى عينيها , ثم الصمت .

- ألا تسمع ؟! اشتقتُ إليك !

استمر بالصمت , فانقضت بقدمها على قدمه ضاربة إياها تحت المنضدة بكل قوتها فكاد يصرخ , ثم قال متألمًا :

- من أين لك هذه الصحة ؟!

ردت متدللةً :

- لا شأن لك

- مالكِ ؟!

- اسأل أصدقاءك الذي تفضلهم عليّ

- اللعنة عليهم , وعلى الجامعة وعلى طاقم التدريس شخصًا شخصًا , وعلى عميد كليتنا الموقرة خصوصًا .

ضحكت فقال لها وهو يتفحص قائمة الطعام بين يديه :

- هل أحضرت نقود غدائك ؟

- نعم يا خفيف .

- جيد .. ماذا ستأكلين ؟

- بيتزا

- غريبة !

- ما الغريب ؟!

- ألن تطلبي برسيمًا ؟

ضربته ضربة أقوى من سابقتها , فأفلتت منه صرخة خفيفة , إلا أنها كانت كفيلة بجذب أنظار كل من في المطعم صوبهما . قال لها وعلى وجهه علامات الألم :

- أقسم أن هذه القوة لا تتأتّى لصاحبها إلا بالبرسيم .
ضحكت برقة وقالت :
- أيليق بشاعر رومانسي أن يقول لحبيبته هذا الكلام ؟
- أما علمتِ أن الشعراء يتبعهم الغاوون ؟ وأنهم في كل وادٍ يهيمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون ؟!
- إلا الذين آمنوا يا شيخ آسر .
- نعم , لهذا كتب الشيخ آسر لكِ قصيدة ستسمعينها في الأمسية الشعرية القادمة.
انفرجت أساريرها فرحًا , وذاب فؤادها في دفء صوته عشقًا , وأعلنت عيناها عن فضولٍ قاتل لسماعِ ما كتَبَه فيها , وقال آسر لنفسه : سبحان من سوّى جمالك !
حلت لحظة من الصمت قطعها سؤال آسيا :
- إلى متى نبقى هكذا ؟
زارت وجهه غيمة من الحزن العميق , فكأن شمسه التي أشرقت برؤيتها كسفت بكلمتها , وشعر في أعماقه بصوت ينادي -سحقًا!- , وقال لها :
- تعلمين أن لا إجابة .
حزنت ملامحها , إلا أنها لما حزنت ازدادت فتنةً , لا كوردة تذبل , لكن كشمسٍ عند الغروب .
تابع آسر :

- لا أعلم لماذا يمنع هذا المجتمع الأحمق من زواجنا !
- إنها العادات يا آسر والعرف .
- هذا عرفٌ ما أشهدتُه ولا رضيتُه , لو كان حرامًا لقلتُ سمعنا وأطعنا , لكن بأي ذنب لا أستطيع الزواج منكِ ؟!
- الفرق بيننا ليس بسيطًا يا حبيبي , أنا أكبر منك بعشر سنوات !
نظر إليها ثائرًا وقال :
- في صفنا أنتِ أم في صفهم .
- أنا فيك , لكني أخبرك بما سنسمعه كلانا .
- أنتِ أصغر مني صورةً وروحًا , لم يرَنا أحدٌ قط إلا وحكم بهذا , فلماذا تمنعنا شهادة ميلادٍ سحيقة من الزواج ؟!
- لله في خلقه شؤون يا آسر , ولا ندري أي شيء خبّأه القدر لنا.
تأمل بشرتها القمحاوية , ذكرته بلون القهوة العربية الأصيلة , وتخللتها نسمة فاشتم منها رائحة القرنفل , وخطر له أنه لو تذوقها لوجدها بطعم التوت البريّ , تاه برهةً في سواد عينيها الكحيلتين , وجال بصره في محجرهما , وتموجت عينه مع رموشهما , قال لنفسه : ما أصدقها وما أكذبها ! ما أحمقها وما أعذبها ! , تكلّمت كثيرًا وهو يتأمل تفاصيلها , وكان لا يسمع من كلامها إلا أنغامًا كأنغام العود , فكّر وقدّر فوجد الحل الأمثل لمشكلتهما أن يبدأ بتناول البيتزا قبل أن تبرد , إذ لا ذنب لأحشائه بهذه النقاشات العاطفية المعقدة .
وكعادة الساعات السعيدة هرولت العقارب وفنيت الدقائق , وافترقا

على وعد باللقا غدًا , وفتح آسر حسابه على فيس بوك وكتب :
-دعونا نتّفق أن البشرة الخمرية أكثر فتنة من الثلجية , وأن الأعين السوداء لا يعدلها شيء , لكننا ابتلينا بجيلٍ لا يفهم في الجماليات- .

*****

دوى انفجارُ قذيفةٍ في معسكر الفاروق , منذرًا بهجوم كتيبة من مقاتلي العدو على ثكناتهم , قام الجند مندفعين إلى أسلحتهم واتخذ كلٌّ مكانه استعدادًا للمعركة , هذا خلف جدارٍ وذاك فوق سيارة وثالثٌ في خندقٍ رملي , وأبو قتادة فوق سطح أحد الوحدات مع قناصته , مؤنسته في غربته , كالصقر يرقب فريسته من أعلى حتى إذا دنت انقض فلم يعد إلا وروحها بين مخالبه .
بدأت المعركة حامية دون تدرج , وانهالت الرصاصات تسكب كأمطار الشتاء الدمشقي القارس , تُكوّن بمجموع ضوضائها أنغامًا تقصُّ على السامعين تاريخ البشرية من لدن الغراب إلى يومنا .
كل ضغطة بسبابة أبي قتادة هي استدعاءٌ عاجلٌ فوري لملك من ملائكة الموت , تعالت الصيحات بالتكبير , والمدافع بالتفجير , وهلعت طيور السماء فانفضّت , وبكسل انقشعت السحب شيئًا فشيئًا كأنها تفرّ قدر وسعها من غبار المعركة , مخلّيةً بين الشمس وبين رؤوس المتقاتلين .
اندفع الجند من الفريقين إلى وسط الميدان تحت الرصاصات مكبرين,

على أرضٍ بوار, لا شيء فيها إلا الرمال والمباني المهترئة التي تسكنها السريّة مؤقتًا, وتحت أشعة الشمس التي يخفّف حدتها سُحيباتٍ ؛ كلٌّ يرى الجنة في فوّهة سلاح عدوّه!

حمي وطيس المعركة ولم ترجح كفّة فريق على الآخر, وبدا لناظرٍ من الميدان أن الحرب لن تنتهي إلى يوم القيامة, وقال أبو قتادة لنفسه مرة وهو يضغط على الزناد : لماذا دائمًا تذكرني هذه القناصة بجهاد ؟!

يتساقط القتلى فتنساهم الدنيا , لا أحد يسجّل أسماءهم , لا أحد يعرفهم , لا أحد سيفتقدهم إلا ذووهم , حتى ذووهم سينسونهم مع دبيب السنوات على ذاكرتهم كالنمل , هكذا الشام يتساقط أبناؤها كأوراق الشجر عند الخريف , أتاها الخريف ولا يودّ أن يتزحزح عن صدرها .. معلّقٌ مصيرها على جناح طائر الغيب , ترثي نفسها وترثي مجدها وترثي أيامها , كعجوز تتأمل بشرتها في المرآة متذكرة أيام الشباب , ما أشبه الشام بأم مالك !

فجأة في لهيب المعركة اندفعت سيارة دفعٍ رباعي يقودها أبو العباس وعلى ظهرها العملاق أبو دجانة , أبصرهم أبو قتادة فانقبض قلبه على أصدقائه , وظل يتابعهم بقناصته يُردي من يتعرض لهم , والسيارة كالسهم تنطلق فوق الرمالِ إلى هدفٍ غامض مخترقة صفوف الجيش الحر , كلما اقتربت اشتد عليها الرصاص , وكلما اشتد ضاعف أبو قتادة من جهده ليحمي أصدقاءه , والسيارة لا لجام

لها تندفع كصخرة ساقطة من سفح جبل إلى قلب العدو , وعلى ظهرها العملاق برشاشين يثخن بهما في صفوف المقاتلين , وفجأة غيرت السيارة مسارها دون إنذارٍ سابقٍ لاتجاه قائد كتيبة الأعداء , كالعاديات في سباقٍ يكسوها الغبار فيكاد يخفيها عن الأعين , ما أن اقتربت السيارة من القائد إلا وقفز أبو دجانة من صندوقها وانقض عليه تحت وابل من الرصاص فأصابت عينه اليسرى شظية رصاصة ذهبت بها وأسالت الدم منها , انقضّ العملاق على القائد وهو يلهث فأسقطه أرضًا , وتوقف الجند عن إطلاق الرصاص خشية إصابة قائدهم , وهرولوا تجاههم كالسيل .

ضرب العملاق رأس القائد بقوّة في الأرض ففقد وعيه , فحمله على كتفه وفرّ إلى سيّارته ولم يعقّب , يجري وخلفه العدو وعلى كتفه قائدهم وعينه تنزف دمًا وحوله التراب ثائرٌ كعاصفة , رماه في الصندوق ثم قفز معه , وطار أبو العباس بالسيارة تجاه معسكرهم وأسرابٌ من السيارات تلحق به .

كبّر جند الفاروق تكبيرة اهتزت لها زوايا الشام , وزأر أبو دجانة بصيحاتٍ قذفت الرعب في قلوب اللاحقين به , وتتبعهم أبو قتادة بقناصته فأردى كثيرًا منهم , وصار أبو دجانة ينشد صارخًا ودم عينه قد غطى وجهه :

ومُدَّجِجٍ كَرِهَ الكُماةُ نزالهُ . . لا مُمعنٍ هرَبَا ولا مستَسلِمِ

جادَت له كَفِّي بِعاجلِ طعنةٍ . . بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكعوبِ مُقوّمِ
فشككتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَه . . ليسَ الكريمُ على القنا بمُحرّمِ

وصلت السيارة إلى ثكنات الفاروق فتقهقرت كتيبة الجيش الحر بعد خطف قائدهم , وفروا منهزمين تاركين الجرحى خلفهم يصطادهم أبو قتادة واحدًا تلو الآخر حتى أزهق أرواحهم .
هدأ الجو شيئًا فشيئًا إلا من عبارات الثناء على البطل الهمام أبي دجانة , واجتمع الجند حوله يهنئونه ببطولته , وضمّد له أبو العباس جرح عينه , إلا أن أبا القعقاع لم يُبدِ ردّ فعلٍ يذكر , اللهم إلا بسمة غير صافية , وربتة على كتفه متكلّفة , ثم لا شيء .

*****

عاد أبو قتادة إلى حاسوبه يسعى, يبحث عن دفءٍ لا يستطيع العيش دونه, يريد محادثة (جهاده!)
فوجئ لما فتح موقع الفيس بوك بأن الدكتور مصطفى الشريف قد رد عليه, -عليك السلام ورحمة الله وبركاته-
ارتاع قلبه برهة, لم يدرِ ما سبب خوفه, أرسل له متوترًا :
- كيف حالك ؟
ولحسن حظه كان مصطفى الشريف حينها متواجدا , فرد لفوره :
- بخير وعافية , وأنت ؟

- الحمد لله بخير .. هل تعرفني ؟
انتظر أبو قتادة قليلًا, عجز عن توقع ردّ الشيخ مصطفى , ثم فوجئ بأن رده أبسط مما ينتظر :
- للأسف لم أنتبه .. مَن ؟
تنفس أبو قتادة الصعداء, ثم رد :
- أنا محمد حمدي يا شيخ مصطفى, لعلك تتذكرني
استمر قلقه, واستمرّ استغرابه من سبب قلقه, وأجاب الشيخ :
- محمد حمدي ؟!! كيف حالك! يالنذالتك! أين كنت يا بني طوال هذه المدة ؟
علم أبو قتادة سبب قلقه المستمر, وفكّر مليًا ثم أجاب :
- مسافر
- ما شاء الله تبارك الله ! إلى أين ؟
قال أبو قتادة لنفسه ها قد بدأنا, أخذ نفسًا عميقًا ثم كتب :
- إلى سوريا
تأخر مصطفى الشريف في الرد بعدما قرأ الرسالة, وتوقّع أبو قتادة أنه غارق في صدمته, وتخيّل وجهه الهادئ وهو مندهش يعلوه قليل من الخوف والتوتر, ثم أجاب الشيخ مصطفى :
- سوريا ؟!!!
- نعم سوريا .. أجاهد في سبيل الله مع الدولة الإسلامية بالعراق والشام

- داعش ؟!! أنت مع داعش يا محمد ؟؟!
- نعم والحمد لله, نِلتُ هذا الشرف العظيم
صمت الشيخ مصطفى قليلًا, وقال محمد لنفسه الآن سينفجر, وقال مصطفى :
- أيُّ شرفٍ في أن تكون مع الخوارج ؟
رغم توقّع أبي قتادة, إلا أنه غضب, فرد عليه متعجلًا :
- خوارج ! هل هكذا ينبغي بأهل العلم أن يتحدثوا عن الدولة الإسلامية ؟ دولة الخلافة ؟ ماذا تركتم للكفار والمنافقين والصحوات ؟
كان الشيخ مصطفى مكبّلًا بالمفاجأة, يتأمل قليلًا ليفكّر في طريقةٍ مناسبة للحديث, يخفق قلبه متوترًا .. أرسل لأبي قتادة :
- أي دولةٍ إسلامية تتحدث عنها يا محمد؟ أنا منذ سنتين مقيم في سيناء لأرد شبهات هؤلاء الخوارج وأواجههم بكلام الله ورسوله!
فرك الشيخ مصطفى وجهه بيديه كأنه يريد أن يطرد الكسل ويستجمع تركيزه , وقبل أن يجيبه أبو قتادة كتب :
- آخر عهدي بك أنك كنت حديث الالتزام بعد رحلة مع التعافي من الإدمان .. ما الذي حدث ؟
فكّر أبو قتادة قليلًا, مغتاظًا لما تذكّر ماضيه, وأكثر غيظًا لأن مصطفى الشريف يعرف ذلك الماضي, ثم أجاب :
- جيد .. لقد اختصرت عليّ المسافات, بعد ذلك تواصلت مع إخوة مجاهدين على الإنترنت, وحدثوني عن الجهاد في سبيل الله وفضله,

وعظيم أجر المجاهد والشهيد, ودرست معهم كتابا يحكي عن واقع الأمة من الكفر والنفاق والشقاق والبعد عن شرع الله, والتحاكم للديموقراطيات والكفر والطاغوت, وبعد تفكير قررت أن أسافر لأهب نفسي لله عز وجل, وأكفّر عن كل ما مضى لي من ذنوب ومعاصٍ وكبائر.

صدم مصطفى الشريف من رد أبي قتادة, وبعد تفكير لم يطُل كتب له :

- يا محمد, ينبغي لمن يسعى لابتغاء مرضاة الله أن يتعلم دين الله ليحسن التزام أوامره, أنتَ خرجت من الإدمان والمعاصي إلى جبهة القتال مباشرةً, فأي علمٍ تلقيّته لتغمر يدك في الدماء وأنت مطمئن أنك لا تصيب دمًا حرامًا؟

إن قتل امرئ مسلم أعظم عندالله من هدم بيته, فأين ما تعلّمته لتتحرز أن تقتل نفسًا زكيّة بغير نفس؟

ماذا درست من كتب الفقه لتتكلم عن الجهاد؟ وما العلم الذي كان معك لتحكم على من تواصلت معهم على الإنترنت بأنهم على صواب؟

يا بني .. إنك في طريقٍ سلكه قبلك أناسٌ حاربوا عليًا رضي الله عنه وكفروه واستحلوا دمه, زوج بنت رسول الله, صهره وابن عمّه ! وكانوا يظنون أنهم يحسنون صنعًا .

ثار محمدٌ وغضب, وكأن مصطفى ضغط على دمل من دمامل

جرحه, أرسل له بنبرة حادّة :
- كفاك رجمًا بالغيب, أنت لا تعلم شيئًا عن ما درسته وتعلمته, انشغل بكفركم أنتم واحتكامكم للطاغوت, وللحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله, أي شبهة في قتال الدولة الإسلامية للذين يحكمون بغير ما أنزل الله؟ ألستم تقرّون بالديموقراطية وتشاركونهم مجالسهم الكفرية المسماة بالبرلمان ليشرعوا فيها بغير ما أنزل الله؟ ألستم تعتبرون طواغيتكم الذين يحكمونكم حكّاما شرعيين؟ من أنتم لتتكلموا عن دولة الخلافة ؟ عن الذين هم على جبهات القتال يذودون عن حياض الدين ويحمون بيضة الإسلام ؟
ابتسم مصطفى الشريف لما قرأ كلام أبي قتادة, وقال لنفسه سبحان الحكيم! منذ شهورٍ كان لا يدري ما الكفر ولا الإيمان, والآن يقول بأني كافر!, استمرت بسمته وتعجبه قليلا ثم أرسل له :
- يا بني, نحن لا نقول أن هؤلاء حكامٌ شرعيون, فالحكّام مراتب .
الأول : الحاكم الشرعي الذي له السمع والطاعة, فكما أنك مأمور بأن تطيع والدك, أنت مأمور بأن تطيع هذا الحاكم, شرط أن لا تطيعه في معصية الله, وهذا الحاكم هو الذي بينه وبين المسلمين عقدٌ له بندان, الأول أنه يقيمُ الدين وشعائره ويحافظ عليه, الثاني أنه يصلح دنيا الناس ويصلح أحوالهم في إطار قواعد الدين, فهذا هو الذي له حقُّ السمع والطاعة .
أما الثاني : فهو الحاكم غير الشرعي, وهذا الذي لا يؤدي الشرطين

اللذين هما أساس العقد بينه وبين المسلمين, فهذا الحاكم لا سمع له ولا طاعة إلا إن أمر بواجب شرعي, لكننا نقدّر المصالح والمفاسد, فقد تكون مفسدة إسقاطه أكبر من مفسدة بقائه, لأنه لو سقط شاعت الفوضى بعده وضاعت البلاد, مثل العراق بعد صدام, ففي هذه الحالة نحتمل الضرر الأقل لئلا نقع في الضرر الأكبر.

والحكام الذين تتحدث عنهم من النوع الثاني, ليسوا حكاما شرعيين, وتعاوننا معهم ليس لأنهم حكام شرعيون لهم السمع والطاعة, بل لأن البديل أسوأ, ولأننا مضطرون لقبول هذا الوضع وإلا شاعت الفوضى, وفي الفوضى سيضيع الدين وتفسد الدنيا بشكل أكبر مما كانت عليه في عهد هذا الحاكم.

قرأ أبو قتادة كلام الشيخ مصطفى, ثم رد بلا تروٍ :

- أفهم من ذلك أنك تؤيد الديموقراطية ؟

- لا .. أنا لا أؤيدها, بل رأيي الشخصي أن الديموقراطية هي حيلة يتحكّم بها الأقلية في الأغلبية, ثم يوهمون الأغلبية أنهم أصحاب القرار .

أيضًا الديموقراطية التي تقبل بحكم الشعب حتى لو خالف حكم الله, كأن يبيح الشعب الزنا والخمر ؛ هي كفرٌ أكبر مخرج من ملّة الإسلام .. فالله تعالى يقول -إن الحكم إلا لله . . أمر أن لا تعبدوا إلا إياه-

لكني أقول : أننا مضطرون لأن نتعامل مع الأنظمة الحالية, بما

تتضمنه من آليات ديموقراطية, وبعض المبادئ الديموقراطية .. لأن البديل أسوأ, وأضر بالناس وبدينهم , ونحاول الإصلاح ما استطعنا .

- تعاملك هذا كفر!

تبسّم مصطفى الشريف ثانية, وتنهّد بحزنٍ, ونظر إلى السقف ثم إلى لوحة المفاتيح وكتب :

- ما أسرع التكفير على لسانك, يا بنيَّ . . تروّ وتمهّل

رد أبو قتادة لفوره :

- بل ما أجبنكم عن التصريح بكلام الله القويّ المتين, ألا تعلم يا فضيلة الشيخ أن الشيخ المحدث أحمد شاكر رفض تولّي القضاء لما ألغيت المحاكم الشرعية ؟

تبسم مصطفى الشريف ثم كتب :

- بلى أعلم, وأعلم أيضًا أنه أجاز الانتخابات والدخول في البرلمان .

صدم أبو قتادة إذ لم يكن يعلم, وأنّب نفسه لأنه تورّط هذه الورطة وهو يعلم سعة اطلاع الشيخ مصطفى, وسارع للرد :

- إن كان قال فهو كافرٌ ولا كرامة, فهو بذلك يقول بالتحاكم للطاغوت وطاعته, وهذا كفر !

صدم مصطفى ! وقال لنفسه أوَ كُنت أعجبُ من تكفيره إياي؟!, ثم كتب :

- يا بني, عبدالله بن حذافة الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه قبّل رأس ملك الروم لأجل أن يطلق سراح أسرى المسلمين, فهل

تقبيله لرأسه إقرار له بكفره وحربه للمسلمين؟ أم أنه ارتكاب لضرر أخف من أجل دفع ضرر أكبر؟ إنه تعامل مع الكافر بما لا ينبغي التعامل معه في الحالة الطبيعية , لكن لأنه في حالة اضطرار فقد فعل ذلك, وأثيب عليه إن شاء الله , وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما علم : حقٌ على كل مسلمٍ أن يقبّل رأسه وأنا أولكم!
إن الأئمة قد نصوا على أن فعل مثل هذا لتخفيف الضرر, لا لأجل الموافقة ليس كفرًا ..
ألستم تستدلون دائمًا بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه؟ إن شيخ الإسلام بريء منكم ومن أفكاركم, بريء من داعش وتطرفها
شيخ الإسلام لما سئل عن جواز العمل في جمع الضرائب التي تجمع ظلما من المسلمين إن كان فيه تخفيف الضرر عنهم, قال أن هذا ليس فقط جائز, بل هو واجب إن كان فيه تخفيف الضرر عنهم !
فإن الذي يفعل مثلما نفعل ليخفف الضرر الواقع على الإسلام والمسلمين مأجور, ليس بكافر كما تقول! طالما يعلن تبرُّأه من التشريع المخالف لما أنزل الله, ويعلن سيادة الشريعة فوق القوانين, ويقول بعدم جواز العمل بالقوانين المخالفة للشريعة, فأين أنتم من كلام شيخ الإسلام الذي تتمسحون به وتنتسبون له ظلمًا وزورا ؟
توتّر أبو قتادة, واحتار قليلًا .. بالطبع لن يكفّر شيخ الإسلام, قال لنفسه: ربما هو أيضًا كافر لكن دعني لا أتعجّل, وربما هذا الكلام

مدسوس عليه, وربّما أحتاج إلى أن أسأل مفتي السريّة, الشيخ أبو الفضل, ثم قرر أن يغير مجرى النقاش فقال :

- لكن الذي يحكم بغير ما أنزل الله مثل الذين أعلنوا إسلامهم من التتار قال عنهم شيخ الإسلام أنهم -طائفة ممتنعة- وقال أنهم يجب قتالهم, فأين أنتم من كلام شيخ الإسلام ؟

تبسم الشيخ مصطفى واثقًا متعجبًا, وكتب :

- جيّد أنك أتيت بنا لهذه النقطة ..

أولا شيخ الإسلام لا يكفّر هذه الطائفة الممتنعة من التتار, بينما تكفّرهم أنت .

ثانيًا حتى لو وقع منهم كفرٌ فلا يعني هذا أنهم كفروا .. فقد يفعل الشخص فعلًا حرمًا لكنه يُعذر ولا يكفر, بل يظل مسلما .

ثالثا شيخ الإسلام رحمه الله يقول بأن المسلمين يجب أن يتعاونوا مع هذه الطائفة الممتنعة المسلمة من التتار لقتال الكفار, بينما أنتم تتركون قتال روسيا وأمريكا وبشار وتقاتلون الفصائل الإسلامية المجاهدة بجواركم, وتفجرون المسلمين في الدول الإسلامية, لماذا لا تتجهون إلى إسرائيل لتقاتلوها ؟ أين داعش من كلام الشيخ المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية ؟ أنتم أبعد ما يكون عن منهج الإمام واعتداله ووسطيته.

تعجّب أبو قتادة, ولوهلة خارت قواه, وسأل الشيخ مصطفى يائسًا مستنكرًا :

- ماذا تعني بأنه قد يفعل أحد الكفر لكنه لا يكفر ؟
استعد الشيخ مصطفى للجواب إلا أن مؤذّن المغرب رفع النداء, فقال لأبي قتادة :
- قد أذن المغرب عندنا, أستأذنك لألحق بالصلاة, وأعدك بالجواب إن شاء الله لأن لنا مناقشات أخرى في وقتٍ لاحق.
هدأ أبو قتادة, وقال له تفضّل, وشعر بإرهاق ومقدمات صداع, وقال لنفسه وهو يحدّثها : ما أقدر هؤلاء الزنادقة على الجدال, لعن الله الجدال والمجادلين, إن الحق واضحٌ أبلج .. وإن الباطل لجلج, وإن دولة الإسلام باقية وتتمدد وستتمدد, وستحارب المسيح الدجال الذي يتبعه أولئك المنافقون الكفرة ! ليت لحاهم كنافةً فنطعمها أبناء المسلمين !
ثم نفض عن عاتقه غبار معركته مع مصطفى الشريف, واستعد لجولة من الغزل على حلبة العشق , وعادت نبضات قلبه تهز ضلوعه وهو يكتب رسالة لجهاد:
- مساء الخير على عصفورتي .
انتظر دقائق , خالجه خلالها إحساسٌ غريبٌ بأن شيئًا سيحدث , وتذكر فجأة قناصته , وأباه وأمه اللذين غادراه في صباه إلى القبر مخلفين له ثروة , وعمه الذي رباه ثم طرده لما تحرّش بزوجه , وميراثه الذي أنفقه على المخدرات , وجهاد .. وعينيها .. وصوتها .. ولمعان نواجذها عند التبسم .. ورقة همسها عند الخجل , وفجأة

ردّت :
- مساء النور على نور عيني .
- كيف حالك يا بسكوتتي ؟
- لستُ بخير !
- كفا اللهُ الشر , لماذا ؟!!
- اشتقتُ إليك !
خرجت منه تنهيدة , وتراقص فؤاده عابثًا بأفكاره ورد عليها :
- وأنا اشتقتُ إلى صوتك وعينيك .
- ليتني أستطيع النظر إلى وجهك الآن يا محمد , هلا أرسلت لي صورة لك ؟
فوجئ بطلبها , فكر سريعًا كيف يتصرف , فقرر أن يرسل لها صورة قديمة له لم ترها هي من قبل , التفت إلى هاتفه ليأخذ الصورة فكانت الصدمة التي كاد ينخلع لها قلبه ! خلفه أبو دجانة واقف كالطود يقرأ حواره مع جهاد بدهشة لا تخلو من غضب ! , فورًا أغلق محمد حاسوبه , ونظر إلى أبي دجانة صامتًا خجلانًا , عبثًا حاول إخفاء توتره , وصمته , وفزعه !
تتابعت ثواني الصمت على قلبه كقذائف تدقه , وبادره أبو دجانة سائلًا مستنكرًا:
- ما هذا يا أبا قتادة ؟!
صمت أبو قتادة وانفجر من جبهته العرق , وقال أبو دجانة :

- أقسمت عليك بالله لتخبرنّي , أنا صديقك وكاتم سرك , ما هذا الذي رأيتُه ؟
- أرجوك أنهِ الموضوع , لا أريد التحدث بشأنه .
- بل وأيمُ الله لتخبرنّي به .
- بالله لا تُقسم
- بل بالله أقسم , ما هذا يا أبا قتادة ؟!
انهال العرق على أنفه وخديه , وبدا على بشرته الداكنة علامات الحيرة , وأسقط في يده , وعلم أن لا ملجأ من الاعتراف لصديقه ورفيقه في الجهاد بتنظيم الدولة الإسلامية , ابتلع ريقه ومسح عرقه وبدأ يحكي عن قصته معها , ومشاعرهما , وخداعه لها رغمًا عنه بأنه في دبي , لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وحكاها , وظلّ أبو دجانة ينصت مهتمًا حتى أفرغ أبو قتادة جعبته , فقال له :
- يا أبا قتادة .. إننا هاهنا نصبحُ ولا ندري أيمسي أحدنا فوق الأرض أم تحتها , وهاك عيني قد كانت معي بالأمس واليوم سبقتني إلى الجنة , فكيف بك لو كنت تقاتل ها هنا عبثًا , وتأكل هذه الفتاة الكافرة حسناتك أكلا , ثم إذا نلت الشهادة صورةً حُرمت منها حقيقةً جرّاء إثمك وذنبك , وإني والله لك ناصحٌ بما بيننا من أخوة رُزقناها من غير حولٍ منا ولا قوة , فألقِ عنك هذا الوثن , وثنَ الحب , فإنه شريكٌ لله في قلبك , وإن الله أغنى الشركاء عن الشرك . وإن كان لك في هذه الفتاة حاجة فمُرها تترك أرض الكفر وتهاجر إليك هاهنا

في أرض الإسلام , ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله , فيزوجك إياها القاضي الشرعي , فتأخذها بكلمات الله لا بوعود الشيطان , وإلا فدع عنك هذا فإنها حالقة , تحلق حسناتك فتنفضُّ عنك مفلسًا لا أجر لك وما نالك إلا التعب .
ثم تركه غارقًا في بحر حيرته ودوامة خجله وانصرف مدبرًا , وقال أبو قتادة لنفسه : اللعنة على هذا اليوم منذ بدأ .

*****

رغم إزعاج صوت الزغاريد إلا أنها طقسٌ مقدس في الأعراس عند العرب , ربّما يتخلف العروسان والمأذون عن العرس لكن لا تتخلف الزغاريد , فهاك يوم التنظيف قد انتهى قبيل المغرب في فيلا أم مالك , وعاد الرجال فأكلوا وشربوا وبدأوا بتبادل قصص يومهم الشاق ؛ ثم تعالت الزغاريد من النساء في غرفة جمعتهن منفساتٍ عن تعبهنّ باحتفالاتٍ مسبقةٍ لعرس أحمد ورهى , بدأ الرقص والطبل , ولعل من أسرار كوننا أن هذه الكائنات اللطيفة الملائكية إذا تُركن وحدهن انقلبن آلات رقصٍ لا تمل ولا تتعب , سواءٌ في ذلك البكر والثيب , الكبيرة والصغيرة ..
امتزجت الزغاريد بأهازيج الأناشيد مع قليل من الكلمات الوقحة التي تلمح بها النساء في مثل هذه المناسبات , واختلطت أصوات التصفيق بالضحكات , أما بيان فكانت -رغم انشغالها بما يشغلهن-

تفكّر بعودة مالك بعد ساعات , استمر الاحتفال وتكررت على مسامعها الكلمة المتوقعة :

- عقبالك حبيبتي

ساعات من الصخب والغناء انتهت بنفاد طاقة الجميع , فانفض الحفل وذهبت النساء لأزواجهن , وجلست بيان مع رهى منفردات كعادتهن , فقالت رهى لبيان :

- ألا تنوين اللحاق بنا والزواج ؟

- لا أخفيك سرًا .. لا .

فوجئت رهى وقالت :

- لماذا ؟!

- لا أحب الحب .

اعتلت أماراتُ الدهشة ملامح رهى , فتابعت بيان :

- الحب عدوّ المحبين , آسرهم وسجّانهم , معذبهم وقاتلهم .

- ماهذا الكلام المعقد يا بيان ؟

- الحب يا رهى في مثل حالتنا مرض , اليوم أحب رجلًا وغدًا أبكيه على قبره , وبعد غدٍ ألحق به كمدًا , ماذا عليّ في هذا كلّه !

- وما الحل يا فيلسوفة ؟

- لا تشترِ القلبَ إلا والعصى معه .

- لا أفهم عليكِ !

ضحكت بيان ثم قالت :

- ولن تفهمي , دعينا من هذا الآن أيتها الرقيقة .
- فكيف تريدين استكمال حياتك ؟
- أحلم أن أكون مهندسة ديكور .
ضحكت رهى فاستغربتها بيان فعللت رهى ضحكها قائلةً :
- أي شيءٍ ستدكورينه يا أم العريف ؟ بلادنا صارت حطامًا !
ضحكت بيان بخفوت وقالت :
- على رأيك !
وتاهت في دهايلز عقلها تتساءل إلى متى يستمر الحال على ما هو عليه؟ هل كُتب علينا في صحائف الغيب أن نعيش بلا مستقبلٍ ولا حاضر؟ وتساءلت هل يُدرك الجلّاد أن أحلامنا التي دهسها أعزُّ من أبداننا التي مزقها؟ ألا يرانا العالم إلا طفلًا غرق على شاطئ والتقطت له صورة, أو رجلًا كان يبيع -الفريسكا- ثم صار نجمًا فضائيًا؟ متى ينظر إلينا العالم كبشرٍ كل واحدٍ منا له كيانٌ وأحلام ومشاعر حطّمتها الحرب؟ لا كحيواناتٍ جريحة يكتفي الناظر إليها بمصمصة الشفاه والتألم وإبداء الأسى ثم الانصراف؟
قطع استغراقها في خيالها طرقٌ خفيف على باب الحجرة , قامت رهى لتفتح , فإذا بمالك خلف الباب ! وسيم مضيءٌ كالبدر , يرتدي بدلةً حربية وعلى كتفه رشاشه , تبسم لبيان بعذوبة فلما رأته تسمرت مكانها لحظة أو بعض لحظة , ثم اندفعت إليه وقفزت تعانقه باكية , وقالت :

- طال الغياب يا مالك !

فقال وهو يتبسم :

- كيف حال صغيرتي ؟

- بخير لما رأتك .

- إذن فلا حرمها الله رؤيتي .

ثم التفت إلى رهى وقال :

- وكيف حالُ عروسنا ؟!

تورد خداها كعادتهما وردت على استحياءٍ :

- بخير الحمد لله , حمدا لله على سلامتك .

- سلّمك الله .

قالت بيان :

- ألن تسلم على ماما ؟

سلمت على الجميع , واخترت تركك للنهاية حتى لا أقطع حديثك مع رهى , لكن يبدو أنني أزعجتكما .

خجلت رهى وانصرفت قائلة :

- لا لا .. كنا قد انتهينا من كلامنا بطبيعة الحال .. أستأذنكما .

أُغلق الباب فنظر لعيني أخته الصغيرتين , غابت طفولتها في أتون حربنا , عروسٌ هي الآن في خدرها , لله ما أعجب الأيام !

قالت له :

- كيف تسير الأمور على الجبهة ؟

ضحك وقال :
- ألن تتوبي عن شغفك بالسياسة والحرب ؟
ردت باسمةً :
- بصراحة لا .
فقال ضاحكًا :
- لن أخبرك شيئًا حتى تغني لي بصوتك الجميل بعض شعر المعلقات .
تمنعت دلالًا فقال :
- إذن لن أخبرك شيئًا , أنا أعود خصيصًا لأسمع زقزقتك !

ابتسمت زاهيةً ثم غنّت :
- أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل . . وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي .. وأنك مهما تأمري القلب يفعلِ ؟!
صفق مالكٌ لأخته مفتخرًا , وقال لها :
- ما زلت مهووسة بالشعر كما عهدتك !
- أورثني هذا الهوس أخي غسّان .
صمت مالكٌ متذكرًا فشعرت بحمقها , وحل صمت حزين أسيف , وقال مالك في نفسه : غسان ! آآآهٍ يا غسان !
قالت بيان محاولة إنهاء الصمت :

- لم تخبرني بالوضع على الجبهة .
- عندنا في معسكرنا التابع لجيش الإسلام أمورنا مستقرة نسبيًا , أما في باقي المناطق فالمشهد كالزئبق , لا يكاد يثبت على حال . ما نراه اليوم سيتغير غدًا أو بعد غد , ثم يتغير ثانيًا وثالثًا وعاشرًا .. لا قرار لشيء .
- مَن يُحاربُ مَن ؟
- أقسم أننا لا ندري .. ألف طرفٍ وألفُ ألف إصبع خفي , بشار وجيشه النظامي , الشيعة وإيران , جبهة النصرة والقاعدة , الجيش الحر , جيشنا جيش الإسلام , أحرار الشام , صقور الشام .. ألف اسم وألف لواء وألف جيش .. ومخابرات أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا , شامنًا أرضٌ ينتهك عرضها بضراوة من كل الشعوب , لا شيء يبدو واضحًا لأحد .

قالت بيان لنفسها : ورهى تريدني أن أحب ! , ثم لأخيها مواسيةً :

- ألا إن نصر الله قريب .

رد مالكٌ متثائبًا من التعب :

- ونعم بالله .
- هيا لتتعشّ ثم تنام لترتاح , يبدو عليك الإرهاق .

خرجا ومرّ مالكٌ بأحمد ورهى فهنّأهما وقال لهما :

- أمامكما تسعة أشهر لتنجبا لنا رجلًا آخذه ليجاهد على الجبهة .

ضحك الجميع , وجلسوا للعشاء فاختلطت الأصوات وتعالت الثرثرة

, كلٌّ واحدٍ منهم له شأنه ووواديه , وكلّهم محطمة أوديتهم , وكان البدر يرقبهم مستعدًا لمغادرة السماء عائدًا بعد شهر , وكان كلّ شيء يمضي بلا وجهة أو قبلة , والواقع لا يرأف بالمغفلين .

*****

تنفّس الصبح إشراقًا فسقطت أشعة الشمس على جنبات القاعة المكتظة بالمنتظرين , توسّطت آسيا الصف الأول منتظرة بطلها في حفلته الشعرية , وكانت كلّما لاحظت أن أغلب الحضور من الفتيات اغتاظت ثم كظمت غيظها , مرّت دقائق حتى ظهر آسر فوق المسرح كالنجم , انفجرت القاعة بالتصفيق والتصفير , بينما ابتسم آسر ووضع كفيه على رأسه يحييهم , رأته آسيا فخفق قلبها , ولقلوب المحبين عند نشوة الحبّ خفقاتٌ تختلف عن غيرها ، تضخ مع الدم شغفًا وعشقًا ، ولرقة جدران القلب تكون كل خفقة أكثر إيلامًا من أختها ، والقلب عندها يتراقص ثملًا دون انتظام ، وتختفي الأصوات من حولك ، وتتلاشى الذكريات ، وتبتسم ابتسامةً بلهاء لا يدرك عفويتها إلا قريب خبير ، ثم فجأة يفارقك هذا الشعور فكأن قلبك قطارٌ ارتطم بسدٍّ لا يتزحزح ، هذا الشعور لا يبدأ تدريجًا ولا ينتهي تدريجًا، بل هما صدمتان كلاهما أثقل على الفؤاد من صعق البرق!

مثل هذه اللحظات أحارت الشعراء وصفًا وأعيت الكُتّاب نعتًا..

وحق لهم أن يفعلوا!

أمسك آسر بالمايك , ثم قال :
- سلام عليكم
رد الجمهور السلام في صوت قوي , فقال آسر :
- قصيدتي الأولى أهديها إلى القريبة البعيدة .. إلى ساكنة القلب والروح .. إليها.
تعالت صفقات الجمهور , وصفقت آسيا حتى كادت تتلف كفيها , كانت أول المصفقين ابتداءً وآخرهم انتهاءً بشكلٍ ملحوظ , يراها الرائي فيحسبها مجنونة .. وما الحب إلا جنون هادئ .
هدأ التصفيق فنظر آسر إلى آسيا مبتسمًا ثم ألقى آسر قصيدته الأولى :

- يا من ينامُ ولم أنم
وحصون قلبي تضطرم
قد صار قلبي غارقًا
فبأيّ فلكٍ يعتصم
وسواد عينك مغرقي
لجفون عيني يقتحم
من لي بمثلِكِ ساعةً

وله السماءُ وألفُ نجم
فجبالُ صبري زلزلت
وبناء صمتِي ينهدم
إن الذي سوى بنانك قادرٌ
أن يجمع الأشتات حتى تلتحم
نم يا صبيح الوجه نوم غزالةٍ
باتت وعينُ الظبي منها تبتسم

تبسمت آسيا فرحةً يرفرف قلبها كطفلة , وصفقت فانفجرت القاعة بالتصفيق والهلهلة , كاد ينخلع فؤادها من مكانه ويطير إلى حيث فؤاد حبيبها , بين ضلوعه الدافئة , كما تعود العصفورة إلعشها مبللة عند هطول المطر , بدا لها آسر كشاعرٍ مخضرمٍ وخطيبٍ مفوّهٍ ومقاتلٍ شجاعٍ وقائدٍ حكيم , والحبُّ أعمى لا يكاد صاحبه يرى من محبوبه إلا ما تقرّ به عينه .
تتابعت قصائد آسر وتعالت التصفيقات وتسارعت دقات قلب آسيا وهي تتأمل وجه حبيبها , شعره المبعثر , ونظارته التي طالما ألحت عليه بتبديلها , وعينيه الخضراوين , ولحيته الخفيفة , ثم قلبه النابض باسمها , وجفنه الحافظ رسمها , وأنامله التي إلى الآن لم تمسّ أناملها قط ..
استمر الحفل على قدمٍ وساقٍ لا يكاد يهدأ , ولما انتهى الحفل تجمع

الجمهور حول آسر , هذا يطلب توقيعه , وتلك تطلب صورة معه , وهذا يكتفي بالتعليق على قصيدته آملا في نقاش قصير مع شاعره , وآسيا تكاد تنفجر غيرةً لولا تفكيرها في لقائهما بعد قليل .

انتهى حفلُ وسط البلد , وبصعوبة أفلت آسر من الجمهور فذهب إلى حيث واعد آسيا باللقاء , جلسا معًا في أحد الكافيهات , سألها عن رأيها في اليوم فظلّت تحكي مدّة وهو مبتسمٌ يسمع , حتى إذا انتهت قال لها :

- من أين تعلمت هذه الثرثرة ؟؟

ضحكت وقالت :

- أعلم أنك تحب ثرثرتي .

- لا , لا أحبها .

- كاذب , أخبرتني بهذا من قبل .

- نعم أنا كاذب , كذبت عليكِ وقتها .

ضحكت وكادت تضرب قدمه كعادتها لولا أن انتبه فسحبها عنده , نظر إلى عينيها فقرأ فيهما حزنًا تحاول إخفاءه , والحقّ أن مثل هذا لا تظهره الأعين لكن تشعر به القلوب ثم توهمك أنك عرفته من الأعين , سألها :

- ما بكِ ؟

- ما بيَ ؟! لا شيء ؟
- ما بكِ يا آسيا .. هل تخبئين شيئًا ؟!
أدركت أن عينيها فضحتها , أو هكذا ظنّت , فقالت بحزن :
- لا أريد أن أزعجك في مثل هذا اليوم .
رد مازحًا :
- أنتِ تزعجينني دائما لا عليكِ .
تبسّمت بتكلّف ثم قال :
- أبي ضرب أمي بالأمس .
اكفَهرّ وجه آسر حزنًا , وعلته غيمة من الجزع والشفقة , وقال لها :
- لماذا ؟
- لا أدري .. فجأة علا صوتهما ثم بدأ بضربها وشتمها وصرخت , واجتمع الجيران عندنا , وكانت فضيحتنا على كل لسان .
- لا حول ولا قوة إلا بالله ! وأين كان أخوكِ خالد ؟
- تعلم أن أخي لا يعود إلى البيت كل يومٍ إلا فجرًا , تفوح منه رائحة الدخان والحشيشبعد سهرة مع أصدقائه .
- صبّرك الله يا آسيا على هذا الوضع الخانق , وكيف حال أمك الآن ؟!
- جسدها يؤلمها وعليه علامات زرقاء, ولم تكفّ عن البكاء من وقتها . . كل فترة يكرر فعلته هذه منذ تزوّجها !
- لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما كان عليكِ أن تأتي وتتركيها في مثل

هذا الحال .
- لا أستطيع أن أتركك وحدك في مثل هذا اليوم يا آسر .
تبسم ثم قال :
- لا حرمني الله منك .. لكنك لن تتأخري هنا حتى تعودي إليها .
- لا تقلق , أتمنى يا آسر حين نتزوج أن يغلق علينا بابنا , فلا يسمع لنا أحدٌ صوتًا , أتمنى أن أعوّض حياتي الخانقة التي ما رأيت فيها إلا التعب والعار والفضيحة في هدوئك وحبك واحتوائك ..
سرح آسر بخياله هنية وهو يبتسم , صمت فتابعت :
- دعك من هذا الآن , قل لي كيف حال أبيك وأمك ؟
- حالهما !! ومن كحالهما ! نزل الأستاذان إلى اعتصام رابعة العدوية .

تعجبت آسيا ثم قالت :
- وأختك جهاد ؟
- لاااا , جهاد لها ملكوتها الخاص الذي تسبح فيها , لا أعلم عنها شيئًا , لكنها لم تذهب معهما .
- أتعلم ؟ فكّرت أكثر من مرة بالنزول لهذا الاعتصام .
استغرب آسر بشدة , ثم قال :
- لماذا ؟
- أشعر أنهم على حق , كان من حق الرئيس أن يكمل مدته ثم

يحاسب بعد ذلك على أخطائه وإنجازاته .
- الخَطبُ ليس مَن على حقٍ ومَن على باطل يا آسيا , ليس النقاش في كون الحق معهم أم لا , هبي أن الحق معهم .. ثم ماذا ؟
هل على صاحب الحق أن يلقي نفسه في التهلكة بحثًا عن حقه ؟ لك حقٌّ في كرسي الحكم , لكن هذا الحق لا يجعلك ترمي بدمائك ودماء الناس إلى الهلكة.
- لا أخفيك يا آسر أني أشعر بانهزام وجبن.
- غدًا سترين بنظارتي .
ضربت قدمه بقدمها وقالت :
- خيبة عليك وعلى نظارتك .
ضحك وقال لها :
- هيا اذهبي إلى أمك , تأخرتِ عليها كثيرًا وهي أحوج ما تكون إليكِ .
ثم فتح هاتفه وكتب على الفيس بوك :
-كل استسلام هزيمة ، إلا استسلامٌ لنظرةٍ من عينيكِ فهوَ نصر-.

*****

علت الشمس بعد الشروق غازية سماء الشام , هذا يخرُّ قتيلًا وذاك يقعُ أسيرًا ولا جديد , صار القتلى يعرفون بالأرقام .. أما الأسماء فما عاد لذكرها متّسع

القتيل التاسع والأربعون , الخامس والستون .. المائة بعد المائة ألف ! الألف وواحد بعد المليونين !
شعبٌ بدّلت أسماؤه بأرقامٍ باردة, لا مشاعر لها ولا روح !
أيتها الصغيرة .. من كان يدري ساعة مولدك أنك ستولدين سلمى . . وتدفنين سبعةً وخمسين, تفوح منك رائحة الغاز الكيماوي الذي اغتالك؟!
من كان يدري أن الأرض ستروى بدماء العصافير, وأن السماء ستشهد على أشلائهم الصغيرة؟! العصفورة رقم ستٍة وسبعين !
لفحت أشعة الشمس تراب الأرض , وسار الجند منتظمين إلى الساحة استعدادًا لتنفيذ الإعدام ذبحًا على قائد كتيبة الجيش الحر المأسور بالأمس , تراصَّ الجند كخشبٍ مسنّدة , وجاءت كاميرات التصوير مع المصورين والمخرجين كأننا في سينما أو مسرح , وما الدنيا إلا مسرحٌ كبير , علم من علم وجهل من جهل ..
ثم استعدت الأرض لشرب دماءٍ جديدة .
أتى أبو القعقاع قائد الكتيبة مقنعًا متوشحًا السواد , ومِن بَعدُ المأسور يمسكه مقنعٌ ضخمٌ من قفاه يجرجره مسلسلًا , ليس في الكتيبة بضخامته إلا هو , بالأمس أسره واليوم يذبحه ..
اتخذ كلٌّ موقعه للتصوير حسب توجيهات المخرج , وجرجر الأسير إلى حيث المذبح , يرتدي ملابس الموت البرتقالية , ويحرك لسانه بذكر ربه , ويقلب بصره مودِّعًا الدنيا .

وقف أبو القعقاع يمسك مكبر صوتٍ وورقة , وجثى الأسير على ركبتيه عنوةً , خلفه أبو دجانة برشاشٍ على كتفه وسكينٍ مشحوذٍ في يده, وصدرٍ يكاد يمنع الريح من المرور.

أشار المخرج إشارة البدء فتلا أبو القعقاع البيان :

- الحمد لله القوي المتين , والصلاة والسلام على المبعوث بالسيف رحمة للعالمين , أما بعد ؛

قال الله تعالى -إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين , كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز-

هذه رسالة من مجاهدي الدولة الإسلامية إلى الجيش الحر المرتد , بعد أن أسرنا قائد كتيبة منهم وعفرنا وجهه بالتراب ,

عودوا إلى دينكم وارجعوا عن غيكم , فحتّام تعيشون في ضحضاح من النفاق والشقاق والكفر والردة ؟ وإنكم والله لن تأمنوا حتى تؤمنوا وتبايعوا لدولة الخلافة , أتحسبون أنا سنرحل أو ننتهى أو نكل أو نمل ؟ كلا والله إننا باقون إلى قيام الساعة , وليقاتلنّ آخرنا الدجال , فسارعوا بالتوبة قبل أن تندموا فإن المعركة محسومة وما هي إلا أيامٌ قليلة , فإن أبيتم وأصررتم إلا على قتال الدولة الإسلامية فما لكم منا إلا الذبح , وقد جئناكم برجال طلقوا الدنيا وجعلوها تحت أقدامهم , يحبون الموت أكثر من حبكم للحياة والقتل عندهم أسمى الأمنيات , مالكم بهم طاقة , فلنبدأن بكم ولنطهرن الأرض من رجسكم , والواقع يشهد لنا بذلك .. والساحة بيننا وبينكم ,

فاعتبروا يا أولي الأبصار , اعتبروا بمن قتل من رؤوسكم ورجالاتكم , واعلموا أننا اليوم بإذن الله نغزوكم ولا تغزوننا , فلقد كنتم ترونا ولا نراكم , وتعرفوننا ولا نعرفكم , أما اليوم فإننا نراكم ولا ترونا , وإنا لنعرف كل من حاربنا وآذانا ونصل لمن نريد منكم , ولا نتأخر عن قتلكم إلا أن تتوبوا .. ها قد أدبر أسيادكم الأمريكان وتركوكم وحدكم , فأين تفرون ولمن تلجأون؟ والله ما لكم ملجأ ولا منجا إلا الله ثم دولة الإسلام , وأخيرًا فلتعلم ملل الكفر ونحله جمعيها أن ما سيرونه الآن هي نهاية كل من حارب الدولة الإسلامية , وليعلم جنود الصحوات والفصائل المنافقة المنتسبة زورًا للجهاد أنهم بقتالهم الدولة الإسلامية يكفرون من حيث يدرون أو لا يدرون , وما لهم عندنا إلا الذبح والقتل والحرق , والله المعين.

أنهى خطبته العصماء , ثم كبّر فكبّر الجند , وتسارع لسانُ الأسير بالتشهد , واشتدت حرارة الشمس على الرؤوس .

أشار إلى أبي دجانة فوضع السكين على عنقه ثم ذبحه وهو يكبّر باسم الله , وذُبح الأسير وهو يشهد أن لا إله إلا الله , وجثم شبح الموت بثقله على الساحة , وخار القتيل كخوار الثور , وانتفض جسده مرتعدًا وقذف الدم من عنقه حتى فارق الدنيا , وحلّ الصمت فكبّر أبو القعقاع وكبّر الجند , وقيل هكذا مصارع الطواغيت والمرتدين , يذلهم الله ويقتلهم بأيدي المؤمنين قتل الدواب .

عاد الجميع كأن شيئًا لم يكن , وشاركتهم الأرض جرمهم فابتلعت

الدماء في أحشائها , وزاد القتلى واحدًا .. فما قيمة الواحد ؟!
خلع أبو دجانة قناعه , وعاد مع أبي قتادة منفردًا , سأله :
- ماذا فعلت في موضوع الفتاة ؟
رد أبو قتادة متمعضًا :
- لا شيء .
- عجّل إذن , اليوم ذبَحنا ولعلنا غدًا نُذبَح .
- لن تأتي مهما فعلتُ , أنا متأكد .
- افعل ما عليك وستدهشك مقادير الله .
- أنت لا تعرفها يا أبا دجانة .. لا تعرفها .
- لكني أعرف الله , من ترك له شيئًا عوّضّه خيرا ..
صمت أبو قتادة يائسًا , فتابع :
- عد الآن فأخبرها بكل شيء , وادعها إلى الهجرة في سبيل الله , ولا تجعل للشيطان عليك سبيلا .
شارفا على الوصول فأنهى أبو قتادة الحوار قائلا :
- فلييسر الله الخير .
- سييسره إن شاء الله , لكن عِدني .
صمت فقال ملحًّا :
- عِدني !
رد أبو قتادة بحيرة :
- أعدك .

*****

فتح أبو قتادة حاسوبه فوجد رسالة من مصطفى الشريف :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فكّر أبو قتادة أن لا يرد, لكن دافعًا لا يعرفه دفعه إلى الرد دفعًا, كأنه سكرانٌ لا يستطيع مفارقة خمره !

رد :

- وعليكم .

تبسم مصطفى في نفسه, وقال :

- هل وصلت إلى أن ترد عليّ بتحيّة الكفار ؟

- نعم, حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وتبايع الدولة الإسلامية وتترك الخروج على الشريعة .

فكر مصطفى قليلا ثم كتب :

- وهذا ما كنت أود أن يكون نقاشنا هذه المرة حوله, التكفير

تعجب أبو قتادة, ولم يرد .. فأرسل مصطفى متابعًا :

- هل تعرف ضوابط التكفير ؟

فأجاب أبو قتادة :

- نحن في أرض المعركة لا يهمنا هذه الفلسفات الفارغة, والخدع الكلامية .. نحن نعرف كيف نحشو البنادق لنحز برصاصها رؤوس أهل الكفر والنفاق

تابع مصطفى :

- إذن فلعلك تستفيد ..

أهل السنة يفرقون بين الفِعل وفاعله, فلا يشترط لكل فعلٍ كفري, أن يكون كلّ فاعلٍ له كافرًا.

- ما معنى هذا ؟

- معناه أن السجود لصنمٍ مثلًا كفرٌ بلا شك, لكن ليس كل مسلمٍ يسجد لصنمٍ يصير كافرًا, بل نحتاج قبل تعيينه بالكفر إلى خطواتٍ كثيرة .

تعجب أبو قتادة وقال مستنكرًا :

- كيف ؟!!!!!!!!!!!!!

- قبل تعيين فاعل الكفر بالكفر نحتاج إلى ما يسمى بـ -استيفاء الشروط و انتفاء الموانع- , بمعنى أن هناك شروطا يجب أن تتحقق في هذا الشخص وموانع يجب أن تنعدم عن هذا الشخص حتى يصير كافرًا بسجوده للصنم, فإن فُقد شرط من هذه الشروط لم يكن كافرا, وإن وُجد فيه مانع من هذه الموانع لم يكن كافرا

ضرب أبو قتادة كفًا بكفٍ وكتب :

- وضّح أكثر, ما هذه الشروط والموانع ؟

أجابه مصطفى :

- هي موانع ثمانية وضّد هذه الموانع شروط ثمانية

المانع الأول : الخطأ, فلو فعل مسلمٌ فعلا كفريًا بدون قصدٍ لا يكفُر,

فمثلا وطؤ المصحف بقدمك كفر لأنه إهانة للمصحف, لكن لو حدث هذا خطأً دون أن تنتبه لوجود المصحف فلا تكفر.
المانع الثاني : النسيان, فلو نسي المسلم أن هذا الفعل كفريٌ وفعله لا يكفر, مثل أن يسلم أحدُ النصارى, وفي اليوم التالي لإسلامه أراد أن يستعين بالله فثلّث على جبهته وكتفيه ناسيًا بحكم عادته القديمة, لا يكفر.
المانع الثالث : الإكراه, فلو هدد الكفار مسلمًا بالسلاح ليسب الله ففعل, لا يكفر لأنه مكره, كما حدث مع عمار بن ياسر رضي الله عنه وأنزل الله فيه -إلا من أُكره وقلبُه مطمئن بالإيمان-
المانع الرابع : الصغر, أن يكون صبيًا لم يبلغ بعد, فهذا غير مكلف, لو أن طفلا صغيرا بكى ورمى المصحف على الأرض فهذا لا يكفر لأنه غير محاسب أصلا.
لوهلةٍ شعرَ أبو قتادة بالجهل ثم الضيق, وحدّث نفسه أن يغلق الحاسوب وينهي كلّ شيء, ثم أعرض عن أفكاره وتابع القراءة, وتابع مصطفى الشريف :
- المانع الخامس : النوم, فلو أن رجلا نائمًا تكلّم وهو نائمٌ بالكفر, لن يحاسب لأنه غير مكلف, وهذا يذكرني بحادثٍ حدث عندكم .
. حينما كان أحد المقاتلين يقاتل الحشد الشيعي وكانوا يهتفون يا حسين, فأصيب ودخل غرفة العمليات, فبينما كان يفيق من البنج ظل يردد : يا حسين, بحكم أن هذا آخر ما كان يسمعه أثناء قتالهم

, فاتهمتموه بأنه شيعي وقتلتموه, وهذا جهل وخطأ .. لأن النائم لا يحاسب أصلا.
المانع السادس : الجنون فلو أن مجنونا سجد لصنم, لم يُحكم بكفره لأنه لا يعقل.
المانع السابع : الجهل, فلو أن رجلًا أسلم قريبًا, ولما سُئل عن فريضة الحج قال جاهلا أنه ليس بفرض, لا يكفر .. بينما منكر فرضية الحج كافر لأنه يكذب القرآن, لكن هذا الرجل عُذر بجهله.
المانع الثامن : التأويل, بمعنى أن يكون لديه فهمٌ خاطئٌ لهذه الجزئية من جزئيات الإسلام, جعله هذا الفهم يفعل ذلك, مثل بعض الذين يطوفون بالقبور متأولين أن هذا تقرب لله, ومتأولين أنهم لا يعبدون الشخص نفسه, فلا شك أن الطواف بالقبور كفر, لكنهم ليسوا كفارًا لأنهم متأولون جهلة ضالون.

ضحك أبو قتادة ورد متعاليًا :
- أما قلتُ لك ! هذه الفلسفات اللسانية التي لا فائدة منها, تنشغلون بالمجنون والجاهل, وننشغل بحزّ رؤوس المنافقين .. أنا مشفق عليك ! تتكلم بكلامٍ لا دليل عليه إلا أهواؤكم وعقولكم , وتترك ساحات الجهاد وتحارب دولة الإسلام!

رد مصطفى الشريف بعد قليلٍ من التأمل :

- أشكرك لشفقتك عليّ, لكن هذا الذي تعتبره فلسفاتٍ لسانية هو الذي يفرق لك بين المسلم والكافر, فيجعلك تضمن عدم إصابة دمٍ حرام, لا كما تفعلون أنتم عندكم من قتل المسلمين بعد تكفيرهم بأدنى شبهة, دون النظر للشروط والموانع !

وهذا الذي تقول أن لا دليل عليه كتابُ الله وسنّته مملوءان بالدلالة عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه- فهذه الثلاث الأُول .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ, والمجنون حتى يفيق, والصبي حتى يبلغ- فهذه الرابعة والخامسة والسادسة.

وقال تعالى : -وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولًا- فهذه السابعة والثامنة, فمن جهل شيئًا لعدم بلاغه به أو لتأوله ؛ لا يحاسب عليه, لأن الله لا يعذّب إلا بعد البلاغ.

وحين يفعل شخصٌ ما الكفر يجب أولا أن يمرّ على هذه المراحل حتى نتأكد من استيفاءه للشروط وانتفاء الموانع عنه, لأن إسلامه ثابتٌ بيقين فلا يزول إلا بيقين, وهذا هو عمل العلماء فقط, فلا يحل لأحدٍ أن يدعي أنه سوف يرى هل استوفى فلان الشروط وانتفت عنه الموانع ليحكم بكفره أو لا, إلا العلماء فقط هم الذين يفعلون

مثل هذا لأنهم من أهل العلم والاختصاص, وعوام المسلمين لا يحل لهم التدخل في مثل هذا أصلا, فضلا عن من لم يدرس كتابا واحدًا وانطلق مباشرةً إلى ساحة القتال يقتل هذا ويذبح هذا ويبيح دم هذا ويهتك عرض هذا !

أنت الآن حكمت بكفري, وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما- , فهل هناك من أهل العلم من عيننني بالكفر لتقول عني ذلك؟

تفكّر أبو قتادة في كلام مصطفى قليلًا, وقال لنفسه قاتله الله ما أخبثه وأقدره على الجدل والسفسطة ! , ثم رد :

- إذن فأنت تقول كل هذا منذ البداية حتى تبرئ نفسك من الكفر والنفاق ؟

- بل حتى أخبرك أن المسارعة إلى التكفير هي علامة الجهل والعبث والضلال, ألستم تستدلون بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتنتسبون إليه زورا وهو بريء منكم ؟

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول :

-وهذا مع أني دائمًا –ومن جالسني يعلم ذلك- أني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسب معينٌ إلى التكفير وتفسيق ومعصية, إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى, وأني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة

خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية-

وكلُّ ما سبقَ بفرض أنني أتيتُ كفرًا من الأساس, لكنني أصلا بينتُ لك في النقاش السابق أن محاولة تقليل الفساد-ولو كانت سيترتب عليها ارتكاب فسادٍ أخف- ليست كفرًا, بل يؤجر عليها صاحبها, كما فعل الصحابي الجليل عبدالله بن حذافة رضي الله عنه لما قبّل رأس ملك الروم ليفرج عن أسرى المسلمين, فقبل عمر بن الخطاب رأسه لما علم !

مشكلتكم يا بني أنكم حملتم السلاح دون علم, فجهلتم مراد الله منكم .. فقتلتم المسلمين والذميين, وشوهتم صورة الدين المعتدل, وأرضيتم شهواتكم متسترين بستار الإسلام والقرآن, فهلا تعلّمتم قبل أن تحزوا رؤوس الأبرياء؟
كفّرتم جميع الفصائل التي تقاتل معكم في سوريا, كفرتموهم بغير حق ثم حاربتموهم, كفّرتم المسلمين الذين يصلحون في بلادهم بغير حق, ولم تكتفوا بالتكفير بل أتبعتموه بالتفجير والقتل والإهلاك ! فهلا تعلمتم القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تجرموا هذه الجرائم؟ الجهل هو أساس الرزايا والمصائب !

حار أبو قتادة جوابًا, واستعاذ بالله من الشيطان الذي كاد يشككه لحظة, وخار عزمه, وأصابه الملل فجأةً, وفكّر كيف يتخلص من هذه المناقشة, ثم قال :
- هداك الله يا شيخ مصطفى, هداك الله قبل أن تقدر عليك دولة الإسلام فتضرب عنقك لأجل نفاقك!
أنا مضطر للذهاب لأجل الصلاة أستأذنك .

وانصرف أبو قتادة عن الحوار يلجم عقله بكلّ لجامٍ لئلا يفكّر فيما سبق, وقال لنفسه هؤلاء سحرة فرعون! لعنهم الله وأخزاهم! , لن أعود للحديث مع هذا الكافر ثانيةً, ثم قال لنفسه مالي وللكفر والإيمان! مالي وللكفر والإيمان وأنا مقبلٌ على مصيبتي مع جهاد !
قد حان مالا بد منه , حانت لحظة الحقيقة بعلقمها وزقومها ..
ضعيفٌ هو الإنسانُ أمام مرآته , مرآته التي تصدقه عيوبه , مرآته التي تخبره بالحقيقة كاملةً غير منقوصة ..
فتح الرسائل بينه وبين جهاد , كأنه يقدم قدمًا ويؤخر أخرى , نازعته نفسه للاستسلام إلا أنه تذكّر شبح أبي دجانة وهو يؤنبه , فتح الرسائل فوجد آخر رسالة بينهما :
- أريد صورة لك يا محمد -
فكّر وتردّد , حار عقله ودار , راودته الذكريات عن نفسه , وقال هذه مرة الوداع ولا داعي للوهم , قرر أن يبدأ الموضوع بإرسال

صورته لها وهو على حاله هكذا , ثم ليفعل الله ما يشاء ..
رفع الصورة , وظلّ ينتظر .. وينتظر .. تدق الساعات ويدق قلبه رعدًا .. توقّع ألف طريقة ينتهي بها الأمر ليس بينها طريقةٌ سعيدة , لا شيء سوى الانتظار المملوء بالتوتر والخوف والندم قليلا ثم الانتظار .
ظهر له أن جهاد رأت الصورة , فزاد نبض فؤاده , بدأت بالكتابة إليه , فزاد توتره .. أرسلت له :
- هههههههههههههههه
تعجّب ولم يفهم , أرسل لها :
- ماذا ؟
- من فعل بك هذا ؟ سحقا لبرامج تعديل الصور .
- ليست برامج تعديل الصور , هذا أنا .
- هههههههه أصدقك أصدقك لا تقلق .
- جهاد , أنا لست في دبي .. أنا في الدولة الإسلامية أجاهد في سبيل الله .
- أتعلم ؟ لولا أننا لسنا في أبريل لقلت أنها كذبة أبريل .
احتار في أمرها معه , بدا له أن يسبح مع التيار ويكمل الأمر كأنه كان مزحة , ولولا أبا دجانة لفعل .. قال لها :
- أقسم أنني لا أكذب ولا أمزح .
ثم أرسل لها صورة أخرى لنفسه وهو جالس ومعه رشاشه . تغيّرت

ملامح وجهها , وتلاشت البسمة شيئًا فشيئًا من على فمها , وبدأت جبهتها بالتعرّق , وأقسم لنفسه أنه لو رأى مظهرها الآن لوجدها كالمغشي عليه من الموت . أرسلت له :

- على ماذا تُقسم ؟ أنا لا أفهم شيئًا !!

- أقسم على أني لم أذهب في حياتي لدبي قط , أنا أقاتل في الدولة الإسلامية , وأنا الآن في ريف حلب .

كانت رسالته كصخرة سقطت من السماء على قلبها مباشرةً فدكّته , وقالت :

- ماذا ؟!!!

- لم أشأ أن أخبرك لئلا تقلقي عليّ

لم تردّ وانفجرت في البكاء , وخيل لها أن قصرًا ينهدم فلم يبق فيه حجرٌ على حجر , وتابع :

- أرجوك تفهمي الأمر , أنا بخير لا تقلقي .

سرت موجةٌ من الغضب فغطّت قلبها الرقيق , وزاد بكاؤها فاستحال عويلًا , وخرت أمامها أحلامها , واجتثت الصدمةُ شجرةً كانت زرعتها في مخيلتها , وسقتها بماء أملها , وبدموعها المنهمرة على خديها كل ليلة , ثم لم تردّ فتابع :

- جهاد ! أين أنتِ ؟ أنا أعلم أن الأمر ليس سهلًا استيعابه , لكنني كذلك وهذا بالفعل ما حدث , وإني يا جهاد أدعوكِ لترك بلاد الكفر عندكِ والهجرة إليّ في سبيل الله , يزوجنا هنا القاضي الشرعي ونعيش

أيامنا كما رسمناها وكما حلمنا بها .
صمتت ولم ترد , وفكّرت في حقارته ودناءته وأنانيته , وبدا له أنها ستغرق في دمعها وحيرتها الممتزجة بغضبها , مرّت دقائق خالجتها خلالها نسمة من أملٍ فكتبت له :
- أرجوك قلي أنك تمزح , تخطى الأمر كونه لطيفًا .
- أقسم أني لا أمزح , هاجري إلي لنعيش أيامنا كما رسمناها يا جهاد .
- اللعنة عليك وعلى أيامنا وعلى رسمنا لها أيها الكاذب الخائن .

*****

اهتزّت الفيلا العتيقة بأصداء الزغاريد , وتهادت الأفواه بأنغام الأناشيد , وتجمع الصبايا والشباب يحيون العُرس, ففي مثل هذه الظروف لا مكان للعرّاضات ولا القاعات , ولا شيء أكثر في يومنا هذا من النصائح , بغثّها وسمينها .
جلست رهى كحورية من حور الجنة بين الفتيات , تكاد تشع نورًا وتفوح مسكًا وتنطق أنغامًا , وتوالت همسات النصح من خالتها دانية في أذنها ؛ -ابنك على ما ربيتيه, وزوجك على ما عودتيه- .. -إذا حبيبك غالي البسله ناري- . . .
وفي الجانب الآخر كان أحمد بين الشباب يعطونه وصاياهم -اقطع راس القط ليلة العرس-
وبين الجانبين كان يتهامس الجميع -عطي الشاب للصبية ولو ناموا

في البرية-
استمرّت فعاليات العرس هادئة تقطع سعادتها كدر الأيام , غنّت الفتيات -الهناهين- وهن يتراقصن :
- أوها وصلوا على النبي أوها وزيدوا صلاته
أوها واللي ما بيصلي على النبي أوها تطلّق مراته لي لي ليش
أوها كسرنا البيضة أوها طلعت بصفارين
أوها كل الناس بفرحة أو نحن بفرحتين لي لي ليش
أوها حصنتك بياسمين , أوها يا زهر البساتين , أوها يا مصحف صغير , أوها على رووس السلاطين لي لي ليش . . .

وتصل أصواتهن للرجال فيردوا :
- صلوا على محمد محكول العين نير وغضير وعادنا وهي
أول ما بدينا حركنا إيدينا , وعَ النبي صلينا وعريسنا هنينا , وصلوا لنصلي صلينا , وحيوا لنحيّ حيينا .
حيوا الميدان أهل الإيمان , حيوا الشاغور الشعلة والنور , حيوا الصالحية كلها زكرتيه . . .
ويا عريس لا تعبس , افرد من جوخك والبس , وغيرك الأبيض لا تلبس , هادا اليوم اللي كنا نريده .. أو وائل ويا عكيدُه . . .

خرج العروسان للزفاف , ووقفا في باحة الفيلا قبل الباب بقليل

والتف الكلُّ حولهما , وأخرج الجميع هواتفه يصورونهما , قال أحمد لرهى بصوتٍ عالٍ وهو يعدُها أمام الصحافة العائلية :
- أعدُك أن أكون لكِ أبًا وأخًا وزوجًا وابنًا وحبيبًا , أعدُك أن تكون أيامك معي أسعد أيامك , وأن لا أتسبب في حزنك , وأن أحفظكِ بين ضلوعي .
ردت رهى بحياءٍ شديد وصوت لا يكادُ يُسمع :
- أعدُكَ أن أكون لك أمًا وأختًا وزوجًا وبنتًا وحبيبة , أعدك أن تكون أيامك معي أسعد أيامك , وأن لا أتسبب في ضيقك , وأن أحفظ نفسي بين ضلوعك .

قبل رأسها بحنان ثم تصدرا الزفة خارجين من الفيلا في جولة خاطفة وخلفهم الأولاد والبنات يصفقون ويغنون , أمسك أحمد بيد رهى , قبض على كفّها.. خطَيَا معًا أمتارًا بعد أمتار , يفكّر كل واحدٍ منهما في حياته مع الآخر وشكلها , وتنبض قلوبهما فرحة بالاجتماع بعد قصة عشق منذ الطفولة .
وفجأةً وبلا مقدّمات تفجّر دويّ طائراتٍ في السماء ! فزعت رهى فشدت قبضتها على يد أحمد , وهلع الجميع ففروا إلى الفيلا , ورصدت الطائرات النظاميّة تجمعًا بشريًا قبل المدينة فرمت قذائفها عشواءً , وتدافع الرجال والفتيات إلى الفيلا , وصلت القذائف إلى الأرض فطارت منها شظايا أصابت ثلاثة رجالٍ منهم أحمد , فخرّ

لفوره على وجهه , وصرخت رهى وانكفأت عليهتحتضنه وتصرخ فزعةً, فجذبها أحد الشباب بقوة إلى الفيلا , وتعالى صراخ النسوة , وأسقط في يد الرجال , وعادت الفيلا العتيقة تهتزّ لكن هذه المرة ليست بالزغاريد !!

مرّت الطائرات سريعا , فخرج مجموعة من الرجال فورًا وحملوا المصابين وذهبوا بهم إلى مستشفى ميداني مجاور .

سمع مالكٌ في معسكره على بعد كيلو مترات في الجبهة دويّ القصف قريبًا من فيلتهم , فاستأذن قائده ثم انطلق سريعًا ليطمئن على أهله , ولما وصل سمع صراخ النسوة فانقبض قلبه وقال يا خفيًّا لطفه الطف بنا .

دخل إلى الفيلا فقابلته بيان منهارة وحكت له ما حدث , ذهب إلى أمه ليطمئنها , وإلى رهى ليخفف عنها , وقال وصوته يكذّبه : لا تقلقا إن شاء الله سيعودون قريبًا ويكون أخي بخير .

مرّت دقائق فرنّ الهاتف الجوّال, رد مالك على المتصل بلهفة ثم فجأة تسمّر مكانه وانصبغ وجهه وصمت .

اقتربت أمه منه , نظرت إلى وجهه دون كلام , ثم نظرت إلى البنات وقالت :

- وحّدوا الله .. استشهد أحمد .

ثم خرّت جالسة ووضعت رأسها بين كفيها , وجثم الصمتُ بثقله على القلوب والأفواه , لحظات كأنها سنوات , خفقات كأنها انفجارات ,

صمتت بيان, أخزاها بيانها وخذلها , تراجعت خطواتٍ إلى الوراء حتى أحست بالحائط خلفها فانهارت قاعدةً , وانسلّ مالكٌ من بين الحريم إلى مكان الرجال وهو يحوقل ويذرف الدمع الأسيف, وغاصت بيان في وحل الألم والذكريات التي تمرّ كلمح البرق عند سماع خبر الموت, غابت عن الدنيا, وتذكرت يومًا هاجمتها ذكراه ! ؛ مرةً كانت عند شجرة التوت بجوار منزل جدتها, يتسابق الأولاد على ثمرات التوت, ولضعفها ورقتها كانت تعجز عن مسابقتهم!

جلست تبكي, عند دراجتها, فجاءها أحمد بكيس توته وتقاسماه معًا, وكفكف دمعها بأنامله, وأطعمها أول توتة بيده ..

قالت بيانُ لنفسها لم يمت, بل غاب ساعاتٍ وسيعود !

انقبض قلبها وضمّ, يختبئ بعضه داخل بعضه, يسحقها الألم وتلجمها الصدمة !

أفاقت فجأة فسمعت الصراخ والعويل يسّاقط من حولها, ودموع أمها الصامتة تقطّع أكباد الحاضرين! ليتك تصرخين يا أماه فيخفّف عنكِ !

وصدمة رهى التي أخرستها فلم تنطق, واجتماع خالاتها حولها ثم بدءِ إحدى الخالات بالغناء :

يا ام الشّهيد اطلعي عالباب لاقيلو

جابوه محمّل على الكتاف... شايلينو

قومي افرشي فرشِتو ...وهاتي مخداتو

نام العريس وغفي.... واتغمضوا عيونو

تتابع تصفيق النسوة والدموع تنسال على خدودهن , وأقمن رهى رغما عنها لترقص كأنها تظهر الفرحة باستشهاد زوجها, رقصت بهستيرية على الأغنية وهي تبكي وتصرخ, وتابعت خالتها :

يا ام الشهيد البسي مطرّز مابين ناسك
ولا طرحة سودة ..تحطيها على راسك
اليوم طير السعدْ.. هدّا على الشباك
رفرف حواليكي.... وبين عيونك باااسك

, وزاد عويل رهى وهي ترقص بفستانها الأبيض الملطخ بالدم, دم أحمد لما سقط واحتضنته! , وتابعت خالتها :

يا ام الشهيد اسندي ظهرك بدياتك
وامشي راسك مرفوع ..مابين خيّاتك
قالوا البطل ان وقع ....تدمع عليه العين
وانتي ليوم الفرح.. خبيتي دمعاااتك

انهارت رهى حتى خرّت مغشيًا عليها فسارعت أم مالك تتداركها , وصمتت بيان مشلولة,تغزوها ذكرياتها مع أحمد , وحنانه وعطفه

, وطيبة قلبه وبعده عن شراسة أخيه غسّان ! آه يا أحمد وآه يا غسّان !

وتابعت خالتها :

يا ام الشهيد اجمعي شعره واجدليله
واغلى عطر عالراس,,, يا يُمّا رشيله
اليوم عرس... حبيب الروح.. المدلَّل
هاتي ثياب العرس ..هاتي مناديله
ياام الشهيد اطلعي عالباب لاقيللو
جابوه محمل عالكتاف شالونو
قومي افرشي فرشتو وهاتي مخداتو
نام العريس وغفي واتغمضو عيونو

ثم ارتفع الصراخ والنواح فغطى على كلّ شيء , وانقلب العرس مأتمًا , وامتلأت العيون دمعًا والقلوب دمًا , ودخل الليل على الجميع , ليلٌ كان ينتظر عصفورين ليشهد عشقهما فإذا به يدفنُ واحدًا ويهيّئُ آخر ! , وعاد الطيار بفعلته إلى فراشه الدافئ , ونام وهو يقول لنفسه : عاشت العروبة ومات الخونة ! .

*****

آسر وآسيا , عصفوران من عصافير الجنة , ولأنهما خارج الجنة فمكتوبٌ عليهما الكدّ والنّصَب , جلس معها في صباحٍ باكرٍ من أيامِ آب على أحد المقاهي في وسط البلد, قبل أن تشتدّ حرارة الجو, تراصّت أمامه كلماتُ العربية ليتخيّر منها ما يشاء فيهبُه غزَلًا في جمال آسيا , وقبل أن يختار فرّت الكلمات كماء يفرّ بين الرمال , اختفت وتركته عاجزًا أمام جمال معشوقته .. لا يملك إلا الصمت والبسمة ونفضةَ القلب ولوعة الوجدان , قال لآسيا :

- أتعلمين أنك بالصباح أجمل منكِ في المساء ؟

وقبل أن تردّ رنّ هاتفه , استأذنها ورد , وفجأة وقف فزعا وتلوّن وجهه وزاغت عيناه وزارت ملامحه تقاسيم الرعب والهلع , فزعت آسيا لفزعه , ولما أنهى الاتصال سريعًا سألته :

- ما بك ؟!

قال وهو يذهب ويجيء محتارًا ..

- الجيش بدأ في فضّ اعتصام رابعة بالقوة !

- يا الله ! وأبوك وأمك ؟!

قال منهارًا :

- لا أدري يا آسيا لا أدري !! هل أذهب هناك لأجدهما ؟!

- هل جننت ؟ بالطبع لا !! اذهب إلى المنزل واطمئن بالمتابعة هاتفيًا , وربك سيلطف .

قال وهو يلملم أشياءه سريعًا :

- يا لطيف يا لطيف !!

ثم وهو يودعها وينصرف مسرعًا :

- ارجعي للمنزل فورًا , وسوف أهاتفك فور الاطمئنان عليهم .

عاد إلى المنزل مهرولًا مشتتا فزعا خائفًا يترقّب , دلف إلى منزله فوجد أخته جهاد تبكي وتنحب , خرّ قلبه على الأرض من بين ضلوعه , سألها والدمع يفر من عينيه :

- ما بك ؟!

ردت وهي تمسح دموعها :

- لا شيء , مشكلة مع بعض صديقاتي

- اللعنة عليكِ وعلى صديقاتك أجمعين , أبوكِ وأمكِ يُقتلان وأنتِ تقولين صديقاتي ؟!

- ماذا !!! يُقتلان ؟!

- اعتصام رابعة بدأت الحكومة في فضه من قرابة ساعة , بالدبابات والمروحيات والرصاص !

فزعت جهاد وزاد بكاؤها ونحيبها , وعاود آسر الاتصال بأبويه ولا مجيب , فتح التلفاز وجلس أمامه هو وأخته يتابعان ما يحدث , وكان كلما جاءت مشاهد جثث تفحصاها وقلباهما في أكفهما يرتعدان , ولسان آسر يلهج -يا لطيف يا لطيف- , وعيونهما تسيل وقلوبهما ترتجف وأجسادهما ترتعش , والله يسمعُ ويرى !

قال آسر سأنزل لأبحث عنهما, وقالت جهاد سأنزل معك .. انفجر

فيها صارخًا :
- ابقي هنا ولا تتحركي حتى نرى ما سنفعله في هذه المصيبة
صرخت فيه :
- بل سأنزل لأبحث, ماذا سأفعل هنا؟
غادرها وهو يلعن أيامهما, وتوجّه إلى المستشفيات يبحث عن أبيه وأمه, وغادرت بعده جهاد, يطوفان متفرقين على المستشفيات, تحار قلوبهما.. أندعو الله أن نجدهما في المشفى؟ أم لا نجدهما في المشفى؟ التيه أخفُّ أم الإصابة؟ اللهم لطفًا لطفًا!
ذهبت جهاد لأحد المشافي فوجدته مليئًا بالمخبرين, يترقبون الداخل والخارج.. وكلّ مصابٍ ينزف دمًا يعلمون أنه كان في الاعتصام فيقبضون عليه وينتزعونه من المشفى ! يجرجرونه يثعب دمًا إلى الحجز في أقسام الشرطة !
دخلت جهاد تسأل عن أبيها وأمها .. مسعود عبدالرحمن, مرفت الصاوي , انتبه لها بعض المخبرين فاستجوبوها, من هذين؟ متى فقدا؟ أين كانا آخر مرة؟ لقد رأيتُك في إحدى المظاهرات لماذا تنزلين؟ أقسمت بالنفي وتتابعت الأسئلة, وأكلوها بأعينهم, وهددوها وتوعدوها لو كانت تكذب .. وخوّفوها وأفزعوها .. وخرجت تلعن الدنيا, وتذكرت محمدًا .. ولعنته!
أما آسر فكلّما خطا خطوة أوقفه مخبر, أين كنت؟ لماذا تسير في الشارع الآن؟ هل أنت عائد من الاعتصام؟

كان قلبه يخفق مرتعدًا على أبيه وأمه, وكان المخبر يثّاقل بالأسئلة, يجيب وهو تائه, يتحمل الدخان الذي ينفثه المخبر عامدًا في وجهه .. ثم أفلت !

مرّ يومان على هذا الحال من البحث الفاشل, والأذية والضرر, وتحرش أحد المخبرين بجهاد, وتعرّض لها بعض البلطجية لأنها تلبس عباءة فاتهموها أنها إخوان! وسبّها طفلٌ صغير حينها واتهمها في شرفها, وحاولت امرأةٌ نزع حجابها من على رأسها, وفرّت تبكي وينزف قلبها, تبغض الدولة والحكومة والشعب, ونفسها وأخاها وأمها وأباها, تلعن يومًا ولدت فيه على هذه الأرض, ويومًا رأت فيه هؤلاء البشر ! خارت نفس آسر وخرّت على أرض اليأس والعجز , وفقدت جهاد وعيها مرات , وحاولت آسيا جاهدةً أن تخفف عن آسر بلا جدوى , وقال لنفسه : لعن الله الشيطان ! لو عقِلا قليلا !

وفجأةً في منتصف الليل طرَق الباب طرقا خفوتًا لا يكادُ يُسمع , ولولا أن النوم طار من أعينهما طوال اليومين لما سمعا مثل هذا الطرق في هذا الوقت المتأخر , فتح آسر الباب بحذر فإذا بمجموعة صغيرة من شباب الإخوان المسلمين ومعهم أمه مصابة إصابةً بالغة , أشاروا له وهمسوا دون ضجيج أن ادخل وأغلق الباب خلفنا , دخلوا والجو مليء بالتساؤلات , ماذا جرى ؟! ماذا حلّ ؟! نظر إلى أمه وهي تتلوى من الألم وجرحها مضمّدٌ بالضمادات الأولية , وقد انكبت جهاد عليها تبكي , ونظر إلى الشباب وسألهم أين أبي ؟ صمت

الجميع , فكرر السؤال لأمه أين أبي ؟ طال الصمتُ فأمسك أحدهم من عنقه وصرخ فيه أين أبي ؟!!!! , رد بصوتٍ يملؤه الحزن والأسى : لله ما أخذ ولله ما أعطى يا أخ آسر .. (تعيش إنت) .

جثمت لحظة من الصمت , فجّره صراخُ جهاد وعويلها في منتصف الليل كذئبٍ فقد ابنه , وشلت جوارح آسر فسقط على الأرض مُقعدًا أصمّ أبكمَ لا يقدرُ على شيء , وسالت دموع عينيه دمعة ثم دمعة ثم دمعة , وخالَ له أن فؤاده يتمزّق بضعة بضعة , وأن دمه يسيل على الأرض قطرة قطرة , وأن الدنيا انتهت في لحظتهم , وأن القيامة على وشك أن تقوم بعد سويعات , وأنه جاء وقتُ الحساب والعقاب , وأن الأرض ستبدل غير الأرض والسماوات , وخال له أنه يذبل , ثم يذبل , ثم يذبل .. , وبعدها فقد وعيه .

******

الفصل الثاني

تغيبُ شمسٌ وتشرقُ شمسٌ ستغيب , ونمني أنفسنا بغدٍ أفضل .
أترى الله يغفر كذبنا على أنفسنا ؟
يسيل الدمع من بين فرث ودم ألما خالصا , يصهر قسوة الأفئدة , ولا يطفئ نار المساكين .
وقلبُ أبي قتادة ما عاد قلبه الذي ألفه , وروحه حلقت إلى حيث لا تعرف , حيث لا ترى ولا تسمع , ورغم ذلك كانت تحس وخز الفراق .
يُرى فلا يرى من ذلك شيءٌ , كمحموم تراه يرتعد بردًا وهو نار تلظى , يقال إن العين مرآة القلب , كذب القائل والمصدق , لو رأى عيني أبي قتادة لما قالها .
أرسل إلى جهاد يستنجد بها من ألم فراقها , يستجير بها من نار

غضبها , يستعيذ بها من شر بعدها .
يعلم أنها لن تعود , ويعلم أنه لن يتوقف عن المحاولة , ويعلم الله ما ينتظره .
يمسك قناصته فيسائلها , أتتركينني يوما كما تركتني ؟ ثم يجيب عنها ؛ كلُّ نفسٍ ذائقة الجزع والفزع والألم والبعد .
كان يسمع همس أبي دجانة وهو ينشد ؛
كدأبك من أمر الحويرث قبلها .. وجارتها أم الرباب بمأسل
ففاضت دموع العين مني صبابة .. على الخد حتى بل دمعي محملي .
عجيبٌ أنه كان لا يفهم , وأعجب أنه كان يتأثّر .
يرسل لجهاد فترى رسائله ولا ترد, تقرأها أولًا بأول .. ثم لا تجيب!
وكانت جهاد تصارع الموت عند الحلقوم , يراود ضعفها عن نفسه , فتستجير بألم خافتٍ لا يكادُ يبين .
أبي عند ربه , أمي معلقة بين بين , ومحمد .. اللعنة على محمد !!
تلعنه وتتذكر كلماته التي يرسلها لها كلّ ساعةٍ أو أقل عن دولة الخلافة الراشدة والحكم بما أنزل الله , تتلفت عن يمينها وشمالها فتتأوّه وتقول يا لمساجد تغلق .. ومصاحف تحرق , ومسلمات تحبس وتغتصب !
يفور فورانها , ثم تهدأ , ويأتيها الضعف من كل مكانٍ فتضعف ثم تعود ! تعودُ عودًا تعلم أن بعده ضعفًا .. وتمني نفسها بأمل .. أترى

الله يغفر ؟
قالت لنفسها : ماذا عليّ لو كلمت محمدًا ؟ فتجيب نفسها : اللعنة عليكِ وعلى محمد .
تبكي , فترق نفسها لحالها , فتقول لها : عودي فكلمي محمدًا , فتجيب نفسَها : اللعنة عليك وعلى محمد .
يقول القلب للعقل ؛ عد , فيجيبه : لا تعد .
عد .. لا تعد .. بل عد عد .. لا .. عُد .. كلا لا تعد .. ستعود .. لا .. عد .. عد .. عد !!
تفجرت دهشة أبي قتادة , صار يتقافز مكانه كالمجانين , يهز نفسه هزا عنيفا عله يفيق من حلمه , حلم يحسبه الظمئآن ماءً .
تلفت حوله .. خر ساجدا .. رفع رأسه! ثم رد عليها :
- ظننتك ذهبتِ للأبد !
بكت وأجابت :
- كذلك ظننتُ
- كيف حالك ؟
- مات أبي .. قتل في فض رابعة .
صمت عاجزًا , رد مواسيًا .. خجلان أسِفًا , قال :
- لم يعد للمسلمين مكانٌ عندكم , هاجري يا جهاد إلى أرض العزة والجهاد , أرض الخلافة والنصر والظفر !
هبّت عليه نسمة تراقص لها عوده , قالت :

- لأجل هذا أكلمك .
أقسم لنفسه أنه يحلم , وأقسمت له نفسه أنها تصدقه , وقال لنفسه : حلمٌ يخفف ألم الواقع؟ , قالت : نعم .
وقالت جهاد :
- ما هي الخطوات لأخرج من هذه البلدة الظالم أهلها ؟
ثم فجأةً انتبهت لما تفعله أو توشك , ودهشت لما تفكر فيه ! بدأ بالحكي والشرح , فانفجرت بالبكاء والعويل ! أكمل الشرح فزاد البكاء , توقّف برهةً فتحسست جهاد زرائر لوحة المفاتيح التي تشوشها الدموع وكتبت له :
- أها .. تابع .

*****

إيييييييهٍ يا أمّ مالك !
يومَ مات أحمد فتحت بيانُ مصحفها فكانت سورةُ يس .. والقرآن الحكيم .. إنك لمن المرسلين .
ومن ساعتها ما انفكت عن القراءة , والبكاء , وقول الشعر والصمت الذي يؤلم الرائي ويفجع العارف .
عجيبٌ أن الذاكرة تنشط عند الحزن, تجلدك بالأيام الخوالي .. بالأماكن التي بقيت بعدما رحلوا .. بأنغامٍ سمعتموها معًا !
ما زالت الجدران تحتفظ في مسامّها بأصوات الزغاريد , ناظرةً يومًا

ستعود فيه الألحان نضرة غضّة , ما أكذب الجدران على أنفسها !
رهى .. كوردةٍ صغيرةٍ كسرت ساقها وظلت معلقة إلى شجرة الحياة بلحاءٍ رقيق سخيف , ذبلت وما زالت معلقة , فقدت عطرها وما زالت معلقة .. كانت تذبل فتيبس أشواكها شيئًا فشيئًا وهي لا تشعر, تبحثُ في عينيها فلا تجدُ تلك البريئة التي كانت يحمر خداها بالأمس خجلًا, بسمتها .. صار لها طعمٌ آخر, وهمسها صار له فحيحٌ إذا تأملته أراعك.
أما أم مالك .. فيا ويح أم مالك , وما أدراك ما أم مالك ثم ما أدراك ما أم مالك !
جبلٌ عتيقٌ عتاقة حلب بشوارعها وأهازيجها , قويٌ قوة الشام بعبقها وريحانها, جميل جمال سوريا بشتائها وحشمتها , تجلى له الموت فجعله دكاء !
قصمت ظهري يا أحمد .. قصمت ظهري يا أحمد , حيٌ قيوم الله !
هكذا كانت تتمتم وتبكي , بارت نبضاتها فما عادت تثمر دفئًا ولا أمنًا , وفعل موت أحمد بها في أيام مالم تفعله الحياة في عقود .

إيييييهٍ يا أم مالك !
عاد مالكٌ من على الجبهة , لأول مرة كان وجهه معفرًا بالتراب , لم ينتبه لهندامه كما كان ينتبه من قبل, سلم على بيان بصوتٍ كسير .
. قبل يد أمه العجوز بقلبٍ أسير, انفرد بها وقال :

- كادت إجراءات السفر تنتهي يا أم مالك .
نظرت له بعجزٍ, صمت قليلًا يظهر التماسك, خارت قواه فانفجر باكيًا وقال :
- يعز عليّ الفراق يا أماه

ثم وهو ينهنه بصوتٍ مجروح :
- لكن سوريا الآن خطر عليكم , يجب أن ترحلوا .
ربتت على كتفه بتعبٍ وهمست :
- أعلم يا مالك .. أعلم .. أعلم .
- لكن هناك مشكلة .
رفعت رأسها تتفرسُ وجهه ثم قالت :
- خيرًا ؟
ستضطرين للسفر مع رهى أولا , ثم ستلحق بكم بيان بعد أسبوع مع إحدى خالاتها .
يائسةً قالت :
- فليفعل الله ما يريد .

******

هنا القاهرة ! صدق الذي سماها قاهرة , زاد تعلّق آسر بآسيا بعد موت أبيه وإصابة أمه , قال لها يومًا

- عيناكِ تخبيء شيئًا .
تبسمت فظهر حزنها , قالت :
- نعم .
صمت يستنطقها فقالت :
- تقدم لي عريس اليوم ورفضته .
ارتعد جسده الهادئ , فزع قلبه فظهر على وجهه , فأعادت بصوتٍ أعلى :
- رفضتُه !
قال لها وقد بدا عليه الجدُّ على غير عادته :
- آسيا ؟
- نعم
- ضميري يقتلني !
باغتتها كلمته فصدمت , ثم قالت :
- أعوذ بالله ! لماذا ؟
صمت فكررت وهي تهزه :
- لماذا ؟
- أنا أؤذيكي .
- تؤذيني ؟!!
- نعم . . أنتِ في سنٍ لا يسمحُ لك بهذا اللعب .
- كيف ؟!

- قد شارفتِ على الثلاثين يا آسيا , إلى متى سترفضين العرسان لأجلي ؟!

- حتى أموت .

- لا أنتِ لا تعرفين شيئا عن العنوسة .

تقضّب حاجباها , وفاح من نبرتها الغضب وهي تغمغم فتابع :

- أخشى أن يأتي اليوم الذي تلعنينني فيه لأني فعلتُ بك هذا .

قامت آسيا منتفضة وهي تبكي , وقالت :

- كيف تجرؤ !

تمالك أعصابه وردّ

- لم أجرؤ , أشتكي لكِ ألم ضميري .

- ضميرك ! ماذا يعرف ضميرك هذا عن ما ألاقيه لأحتفظ لك بنفسي ؟

توتّر الجو , وببراعته هدّأ من روعها , جلست ثانيةً , هدأت , تبسّمت , أشرقت , قال لها :

- سأنهي هذاالأمر .

- كيف؟!

- سأخبر أمي بكل شيء ونرى ما هي الخطوة القادمة .

- لا يا آسر .. سترفض بكل تأكيد , ليس هناك احتمال للموافقة !

دار نقاشٌ طويل انتهى بقوله :

.- سنرى , وليفعل الله ما يريد

****

في سريّة الفاروق نفخ أبو دجانة صدره مثل الديك , وقال منتشيًا لأبي قتادة :

أما قلتُ لك ؟ من ترك شيئًا لله عوّضه .

ضحك أبو قتادة وضحك أبو العباس وتبسم أبو القعقاع , قال أبو قتادة :

سأذهب لاستقبالها على الحدود بعد أيام .

قاطعه أبو القعقاع بحزم :

- لا .. لن تذهب , سنخوض معركة قريبًا ونحتاجك فيها .

تمعض وجه أبي قتادة وقال :

- ثم ماذا ؟

- سأرسل أبا العباس ليحضرها بدلا عنك , أما أنت فلا .

قال أبو دجانة معترضًا :

- توفّر رجلًا فترسل آخر مكانه !

نهره أبو القعقاع بنظرة ذات مغزى , ثم بنبرة حادة :

- عندنا قناصٌ واحد وألف راجلٍ .

مجبرًا وافق أبو قتادة , ممنيا نفسه بما بعد هذا الشقاء من لحظات سعد وود , متخيلًا وجه عصفورته وهي تبتسم له بعد سفرٍ شاقٍ بعيد .

وبالليل عاد كل شيء كما كان , قالت له جهاد :
- لا أتخيل لحظة لقائنا .
- لكني أتخيلها يا جهاد , كم رسمتها في مخيلتي خلال الأشهر الماضية .
- أنا خائفة .
- لأنكِ بعيدة , البعد يعني الخوف والبرد .
قالت جهاد لنفسها : كيف ؟ فأجابت : لا أدري !
كان القمر يراقب العشيقين , وكانت نسائم الليل الباردة تتخلل ضلوعهما فتداعب أفئدتهما , مداعبةً رقيقة باسمة .. هادئةً ناعمة .
كانت جهاد تنتشي ساعةً وترتعد ساعات , وكان أبو قتادة يتمنى لو يملك طيَّ الأيام , لو يملك دفع العقارب دفعًا إلى الأمام , ما أبطأ اللحظات حين ننتظر , وما أسرعها إذا وصلنا , ما أخفت النبضات عند الحزن , وما أشدها عند الشوق والفرح , بل ما أقرب اللقاء وما أعجلنا !
قال لنفسه : يا أيها الجالس على حافة الزمن تنتظر روحك المهاجرة , صبرًا جميلا يخفف عنك ألم البعد ووحدة الفراق .
وقالت جهاد لنفسها : أأفضح أهلي وأهرب ؟
ثم قالت ؛ وأين أهلك يا مسكينة ؟ أبوك مات , وأمك في الطريق , وأخوك ليس أخاك إلا على الأوراق !
أمضت ساعاتٍ من الليل تتأملُ قرارًا لا تعلم كيف ولا متى اتّخذته

, لعنت ماضيها ومزقت حاضرها وتطلعت إلى مستقبل مورقٍ مع الحبيب القريب , مع الراقد في صفحات القلب وخبايا الروح , مع محمد !
سحقًا لحياتك البائسة , سحقًا لدولتك الكافرة , لمجتمعك الفاسق , للزنادقة المحيطين بكِ , سحقًا لأهلكِ ثم سحقا سحقا !

*****

وطأت أم مالك تراب بورسعيد مع رهى فتنفست الصعداء, بعد رحلة طويلةٍ شاقّة هربتا فيها من الدمار, مرورا بتركيا, وصولا إلى أرض بورسعيد بالباخرة , ملأت رئتيها العجوزتين برائحة اليود البحري الغازية للهواء , وطربت أذنها لحظة لأصوات بائعي السمك ونغمتهم العجيبة في الكلام وفتح أواخره, راقبت المعدية وهي ترسو ببطءٍ على الشاطيء فينزل منها المئات ويصعد إليها المئات, لا تكلّ -المعدية- ولا تمل, لا تشتكي ولا تتوجع, ما أشبهها بالدنيا .. تنقل كل يومٍ عشرات الآلاف من بطون أمهاتهم إلى بطون قبورهم! ثم لا تشتكي ولا تمل!
قالت أم مالكٍ لرهى وقد تصنّعت ملامح الحكمة على وجهها :
- نحن عصفورتان فرَّتا من أسر الدنيا إلى حرية القفص .
ضحكت رهى بدلالها وقالت :
- ألا ترين يامو أنك عصفورة سمينة جدا ؟

ضحكتا بهستيرية , ثم تلاشى الضحك شيئًا فشيئًا , وقالت لها أم مالك :

- الآن ها نحن ذا , لا مال يكفينا إلا القليل ثم لا مأوى ولا رجل !

- وماذا سنفعل ؟

تطلعت أم مالكٍ إلى السماء وقالت :

- سنبحث عن أحد الطيبين لنحكي له قصتنا فيساعدنا , ما أكثر أولاد الحلال .

ردت رهى وهي تتنهد :

- يا رب !

سارتا عند المسجد الكبير بعد معدية بورفؤاد , تجران خلفهما أذيال الـ ... سوريا ! نعم .. أذيال سوريا !

تصل المعدية فينزل المئآت ويصعد المئآت , تفرستا وجوه المارة , تفرس مفلسٍ مسكينٍ جار عليه الزمان , قالت رهى لأم مالكٍ :

- ها ؟

أجابتها :

- وما أدراني ؟!

ثم لنفسها : لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت وما مسني !

إيييييييهٍ يا أم مالك !

نسجت الدقائق ساعاتٍ طوالٍ عجافٍ ! قعدت أم مالك من التعب , وزفرت رهى من الملل والألم , ثم فجأةً توجه نحوهما رجلٌ خمسينيٌ

عليه علامات الصلاح والتقوى .
اقترب خطوة وقرّب معه الأمل , خطوة خطوة .. أملا أملا ..
وصل فسلم غاضًّا بصره متكلّفًا , ردّتا :
- عليكم السلام والرحمة والبركة .
- لاحظتكما منذ مدة هكذا , هل تنتظران شخصًا أو شيئًا ؟
صمتت رهى حياءً , وقالت أم مالك :
- يا أخي , نحن سوريتان كما ترى , وصلنا اليوم من سوريا ولا نعلم ماذا نفعل , لا مال ولا رجل ولا مأوى , وربك مطلع , ويكرم أهل الفضل والمروَّة .
أظهر الحاجُّ الأسى والألم , وقال لهما :
- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم , والله قد ساقكما الله إليّ سوقًا يا حاجّة , أنا الحاج سلّام , عبد من عباد الله الطيبين وسمعتي في بورسعيد تسبقني . فأبشري بفرج من عند الله قد جاءك !
ردت أم مالك وقد تهلل وجهها وسكن قلبها :
- بشرك الله بالخير يا حاج .
- عندي لكما غرفة في إحدى عماراتي , أرجو أن تناسبكما مؤقتا حتى أجد لكما إن شاء الله حلا أفضل .
تهيّأت أم مالك لتدعو له وقد علا وجهها الاستبشار فقاطعها :
- وعليّ أكلكما وشربكما وسكنكما وكساؤكما , المال مال الله , ونحن عباد الله !

بكت أم مالك وشكرته رهى , وخطف نظرة إلى وجه رهى ثم عاد إلى صومه عن النظر , وقال :

- لا شكر لا شكر ! , الله هو الغني الحميد .. الله هو الغني الحميد !

أخذهما الحاج سلام إلى غرفة فارغة مصممة للبواب في إحدى عماراته الفاخرة , وطلب لهما عشاءً دسمًا , ثم ودعهما وتولّى ودعوات أم مالك تنهال عليه .

تأفّفت رهى من التراب فقالت أم مالك : يجب أن تعتادي عليه .

قالت رهى : ولا يوم من أيام الفيلا . فقالت أم مالك :

- أي مكانٍ يؤويكي فهو فيلتك , اشكري الله وهيا لننظف .

- مالي أراكِ قد أشرقتِ في مصر من جديد ؟

- يا بنية ! لو لم نشرق لغبنا , نشرق كي لا نموت , لا ينبغي أن نموت !

بدأتا التنظيف , وفجأة تذكرت رهى أحمد فسال دمعها ساخنا صامتًا , لاحظت أم مالك فضمتها وقبلت ما بين عينيها وقالت :

- اللقاء قريبٌ يا رهى , قريبٌ فلا تستعجليه .

******

كان آسر يقدم رجلًا ويؤخر أختها , يتردد ثم يعزم , ثم يتردد ثم يعزم , ثم يقرر ويقسم , كان يقسم لنفسه ألف مرة ويحنث ألفًا .

حتى سفك دم الشك باليقين , قال لأمه وهي قعيدة الفراش :

- السلام عليكِ .

نظرت إليه متألمة , ورغم ألمها وضعفها لم تفقد صرامة نظرتها , ردت :

- عليك السلام يا آسر .. اجلس !

جلس بأدب , تبسم لما تأمّل , قال لها :

- أريد أن أفاتحك في موضوع .

تفرست وجهه ثم ضحكت بصعوبة وقالت :

- تريد أن تخطب ؟

دهش لفراستها , وبشّ وجهه , وقال نعم !

- ومن صاحبة النصيب ؟

- هنا بالضبط المشكلة .

تعجبت وقالت :

- أية مشكلة ؟

تلعثم وقال :

- أحببت فتاة كاملة الأوصاف .

ضحكت أمه , فتساءل , فقالت له :

- هكذا الحب , يريك المحبوب كاملًا .. تابِع .

تمعض ثم تابع :

- إلا نقطة واحدة.

- ها ؟

- أنها أكبر مني !

بدا عليها المفاجأة , إلا أنها لملمت ملامحها وقالت :
- بكم ؟
- عشر سنوات .
ملأت الدهشة وجهها ممتزجة بالاستنكار والتأهّب لمعركة , كظمت ما بها وقالت :
- وكيف تعرفت عليها ؟
- قابلتها في إحدى حفلات توقيعي وتعرفنا , ثم أحببنا بعضنا .
تفجر الغضب منها وتطاير شرره , وصرخت رغم ألمها في وجهه قائلة :
- أيٌ حب أيها الأحمق ؟ أنت من سن أولادها ! تلك اللعينة الساقطة ! استغلت صغر سنك وخدعت , وجدتك شابا ذكيا مرموقا فطمعت فيك وآلت على نفسها أن تلتف حولك مثل الأفعى ! ومنذ متى وبنات الناس يتعرفن على الشباب في الحفلات ؟!!!
قاطعها قائلًا :
- نريد الحلال يا أمي !
صرخت فيه بنبرة أعلى :
- حلّ الله رقبتك من على كتفيك ! تريد السافلة أن تختطفك مني وأنت أحمق مراهق ! حلال ماذا ؟ حلال أن تخدعك تلك العقربة وتوقعك في شباكها ؟ يا لك من ساذج !
همّ بمقاطعتها فانفجرت باكية , متألمة بجرحها , بكاءً صهر قلب

ابنها , وقالت :
- تخدعك يا آسر , تخدعك وأنت ساذج صغير لا تعرف شيئًا , هذه حرباء عجوز فاتها قطار الزواج وتبحث عن رزقها عند حمقى مثلك ! وأنت لا ترحم ضعف أمك , ستزيد مرضي حتى أموت ! سأموت غاضبة عليك إن لم تنه هذه العلاقة مع تلك الحرباء !
لن يبارك الله لك في حياتك لأن أمك عليك غضبى , فلتهنأ بهذه الساقطة
استمر الصراخ متواصلًا قرابة ساعة , وأسقط في يد آسر فلم يجد بدًا من وعد أمه بقطع علاقته نهائيًا بتلك الفتاة التي تخدعه وتوهمه .
ثم عاد إلى آسيا يجر أذيال الأسى , يحكي متألمًا , تسمع متألمةً , تكف ألمها عنه ببسمة مصطنعة , نسيت أنه يكاد يعلم صمتها قبل جهرها, يميز بين طبعها وتصنعها ! قالت له تواسي نفسها قبله :
- لا عليك , ربك صاحب المقادير , إن قدر علينا اللقاء سنلتقي .
ثم لنفسها داميةً : وإن قدر الفراق ... !
راود آسيا احساسٌ خفيٌّ بدا مع الأيام بأن آسر يسعى لتركها تدريجًا كي لا يؤلمها , صار لو تأخر عنها مرة تقول ها هو يفعلها , ها هو يقتلني قتلا بطيئًا , يتركني أنزف يومًا بعد يوم .
وذات ليلةٍ قالت لنفسها كأنها تخاطبه ؛ اجعل فراقك هادئًا .. ساكنًا .. ثم خاطفًا , أما سمعت قوله : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ؟!
دخلت أم آسر المستشفى, وتعالت نبرات المشاكل بينه وبين آسيا

, هو يقسم أنه لا يخطط للبعد , ونفسها تقسم أنه يبتعد ببطئ , كقاربٍ في الأفق .. يسحبه الموج شبرًا شبرًا .. فجأة ستستيقظ فلا تجده !

ذات صباح جلس معها في أحد المطاعم يكفكف دمعها بأنامله , قال لها مداعبًا :

- لم أكن أعلم أنك تشعرين مثل البشر !

ضربته في كتفه وضحكت وهي تبكي , فسارع قائلًا :

- لا لا .. لا تضحكي , منظرك وأنتِ تبكين أفضل !

ضحكت أكثر , وضربته ضربةً أشد , فضحك وقال لها :

- نعم , هكذا أنتِ طبيعية .

انقضت ساعاتهما, وانصرف إلى بيته مهموما, دخل فلم يجد جهاد! تساءل أين هي.. ذهب ليبحث عن طعام في الثلاجة فوجد عليها ورقة مكتوبة, انقبض قلبه فجأة وارتعد جسده بلا سبب ..

, أخذ الورقة , قرأها فوجد فيها :

-السلام على القارئ ورحمة الله وبركاته ..

أنا جهاد مسعود , أخبركم أني مهاجرة من أرض الكفر إلى أرض الإيمان , الدولة الإسلامية بالشام والعراق , سئمت حياة الاستعباد في مصر وحياة النفاق والكفر , وأنا مهاجرة إلى أرض الإيمان , ولي هناك رجلٌ اسمه محمد , ما إن أصل حتى يزوجنيه القاضي الشرعي فأصير زوجته على سنة الله ورسوله , وأنصحكم بترك دار الكفر واللحاق بي

في دار الإسلام .
والسلام . . -

أنهى القراءة فخرّ على الأرض عاجزةً أعضاؤه, حاول الاتصال بها فوجد هاتفها مغلقًا, تسمّر برهة ثم انتفض يصرخ ويحطم أثاث المنزل! حتى خارت قواه ثانية وأقعى على الأرض لا يتحرّك..
ساعةٌ من الحيرة والترددوالذهول قرّر بعدها أن يذهب لأمه في المستشفى, رغم حمق الفكرة إلا أنه لم يجد حلًّا غيرها..
ناولها الورقة, قرأتها .. صعقت , ثم صرخت بألم .. ولطمت على خديها وقالت تحطم بيتك على رأسك !
ثم أغمي عليها, وحاول الأطباء إسعافها فلما أفاقت صرخت فيه بصوت أجشَ مريض :
- أنت السبب , أنت الذي صادقت بنات الناس , فرده الله في أختك !
تفجر آسر وانطلقت ثورته كإعصار ضارب , في لحظة حمل شاشة أحد الأجهزة الطبية ورمى بها في الأرض فتهشمت , وصرخ في أمه :
- الآن صارت بنات ناس ؟ ألم تكن عقربة ساقطة ؟
بل أنتِ التي خضتِ في أعراض الناس بالباطل واتهمتِ آسيا بما ليس فيها فأراك الله ذلك في ابنتك !

حطّم بقبضته جهازًا آخر ثم قال لأمه صارخًا :
- من الساقطة ؟ التي تهرب من بيتها إلى عشيقها ؟ أم التي تطلب العيش في الحلال مع شخصٍ أصغر منها ؟
تبادلا الصراخ وأقبلا على بعضهما يتلاومان , وكاد آسر يحطم في فوران غضبه أجهزة غرفة المشفى لولا أن هرول إليه الأطباء والممرضون وأمسكوا به بشدّة يهددونه ويتوعدونه, ويحاولون الإبلاغ عنه, ولم يقطع جنونه إلا إغماء أمه ثانيةً .. ألمًا وحسرةً .
ثم .. هدأ !

*****

وصل أبو العباس إلى حيث كان الاتفاق , ليزفّ جهاد لعريسها أبي قتادة , تفكّر هنيّة كيف أن الدنيا متشابكة بهذا القدر؟ كيف أن المسافات قريبة هذا القرب؟ كيف أن العقارب لا تصعد إلى السطح إلا ليلا لتلدغ وتفرّ !
أين روسيا التي كنت فيها؟ بل وأين أنا؟ أين أنا الذي كنتُ فيها؟ من كان يحسب والخطوب كثيرةٌ أني سآتي هنا لأفعل ما أفعل؟ سبحان المدبّر!
مرت دقائق قليلة , أتى فيها مجموعة من المقاتلين التابعين لتنظيم الدولة في هذا المكان ومعهم جهادًا بعد أن تسلموها من غيرهم في رحلة تهريبٍ طويلةٍ خطّط لها محمد ودبّر . .

رآها أبو العباس فغضّ عنها طرفه , ركبت في المقعد الخلفي وانطلق بسيارته عائدًا إلى مقرّ سريّة الفاروق , زافًا عروس محمدٍ إليه , محمّلًا بالبشرى ليلقيَها على قلب محمدٍ فيرتد بصيرا .

طوى الصحراء مسرعًا بسيارته , آملًا بسماع نصرٍ مؤزرٍ لسريته حين يعود .

كانت جهاد في الخلف تصارع عقلها وضميرها, تدفنهما وتهيل عليهما التراب, وحين تهيل التراب يقول ضميرها مهدّدًا : وإذا الموءودة سئلت .. بأي ذنب قتلت ؟! ..

وكانت لا تفعل شيئًا إلا أن تدسّه في التراب !

بعد مدة بدا من بعيدٍ شبحٌ لمقاتلين يقطعون الطريق في لجنة .. أو كمين !

دقّقَ أبو العباس النظر فرآى مقاتلي الجيش النظامي , تفجّرت نبضات قلبه فزعا .. انحرف بسيارته عن الطريق وخاض غمار الصحراء يعبّها عبًا .. انتبه له مقاتلوا الجيش النظامي فطاردوه بسيارتهم وقذائفهم .

احتار أبو العباس .. أين المفر ؟ أين المفر في هذه الصحراء المفتوحة ؟ أنّى لي أن أهرب منهم؟!

كان يفكر وكانت جهاد تصرخ وكانت القذائف تمرّ حولهم كالأسهم , تراود أصوات القذائف أرواحهم عن نفسها !

ترجّى أبو العباس جهادًا أن تصمت ليفكر , وترجته أن يسرع لتنجو

, وازدادت القذائف من خلفهم عددا وبأسًا , واقتربت السيارات النظامية منهم , وابتعد الطريق واتسعت الصحراء .. أين المفر ؟!
أصابت قذيفة إطار سيارة أبي العباس فانقلبت بعنف , ولما استقرت خرج منهاخائفًا بصعوبةٍ وأخرج جهادًا وهي مصدومة لا تتحرك, ثم انفجرت السيارة بعد ثوانٍ ..
فرّ وقد جرح في بطنه جرحا عميقًا , وكسرت ساقه . . يجري أعرجَ ويمسك ببطنه لئلا تندلق أمعاؤه
توجّه إلى حشائش قريبة فتوارى بينها , وصلت القوات النظامية فأمسكوا بجهاد , وبحثوا عنه فلما لم يجدوه قالوا تفحّم داخل السيارة ..
وجرجروا جهاد عائدين وعيونهم تمزقها وضحكاتهم توحي بنيّاتهم , وصراخها ونحيبها يشق السحاب ولا مجيب !
انتظر أبو العباس حتّى أرخى الليل سدوله , خرج من مخبئه .. أليست العقارب تخرج بالليل ؟
زحف مهلكا , مثعبا بجراحه .. مضعضعا قلبه , دامعة عينه , يلهث من العطش .. يطوي الأرض شبرًا شبرًا , مترًا مترًا .. ببطئ وألم .. ساعات تليها ساعات , يكاد ييأسُ لولا أن اليأس في هذه اللحظات قاتل !
مع الصباح وصل أمام مقر سرية الفاروق بأعجوبة وارتمى مغشيًا عليه !

رآه أصحابه فهرعوا إليه فزعين , ورآه أبو قتادة فصُعق , بثّ في روعه ألف سؤال وسؤال .. كلهم يبدأ بأين هي ؟

أتى طبيب السرية مسرعا وأخذه إلى حجرته ليجري له جراحة عاجلة , مرت خلالها الدقائق على صدر أبي قتادة مرورا ثقيلا مرعبا , كان أبو دجانة يهدئه ويبشره ويواسيه, وكان لا يسمعه .

أفاق بعد ساعاتٍ فهرع إليه أبو قتادة وقال :

- أين جهاد ؟

رد أبو العباس بصوت ضعيف منهك آسف :

- أخذوها

أخذ أبو قتادة بمجامع ثيابه وصرخ منهارا وهو يهزه هزًا عنيفا :

- من هم ؟!! من الذي أخذها ؟!!

أمسكه أبو دجانة يهدؤه ويبعده عن أبي العباس , وقال أبو العباس بضعف :

- جنود بشار .. الجيش النظامي .

حضر القائد أبو القعقاع مسرعا , فانتفض أبو قتادة نحوه صارخًا :

- سنباغتهم الآن ونحضرها .

طلب منه أبو القعقاع بحزمٍ أن يجلس حتى يعرف القصة , أنصت باهتمام لأنّات أبي العباس وهو يحكي , ولما انتهى أبو العباس قفز أبو قتادة ثانية وقال :

- سنباغتهم ونحضرها قبل أن يفعلوا بها شيئًا .

صمت أبو القعقاع هنيّة ثم قال بحزمه المعهود :
- لا .
ذهل أبو قتادة وقبل أن ينطق تابع أبو القعقاع :
- إن المجاهدين لا تحركهم العواطف ولا الشهوات, لدينا خطة من مقر الخلافة ننفذها بحذافيرها, ونحن نمضي ولا نلتفت .
خار أبو قتادة كخوار الثور وهاج وماج فانصرف أبو القعقاع وهو يقول :
- هدّؤوا صاحبكم قبل أن يفعل ما يُحاسب عليه .

******

في دهاليز سجون بشار كانت تئن جهاد ألمًا وخوفًا في زنزانتها , تحت وطأة الركلات التي تلقتها وهي في طريقها إليها , ووطأة ضميرها الذي خرج من تحت التراب يجلدها بلا رحمة , ووطأة البرد والبعد والتفكير والحيرة .
يجلدها ضميرها بسياط ملتهبة على ظهرٍ عارٍ خجلٍ, خنتِ الله وأهلك, لحقهم العار في مصر, وها هو العار ينتظرك بعد قليل, استغرقتِ في أحلامكِ فصرتِ كعاهرة تهرب من أهلها لعشقيها! , تقول جهاد لضميرها : هاجرتُ من أرض الكفر إلى أرض الإيمان, أهلي كفار بالله العظيم! ؛ فيبصق عليها ضميرها ويقول ما أكذبكِ على نفسك!

فُتح باب الزنزانة وانسلّ منه ثمانية أشخاص ينظرون إليها نظرة الذئاب إلى شاة انفردت عن قطيعها , نظرت إلى أعينهم فرأت شرفها وهو يدنس , وخدرها وهو يحطّم , وللحظة تذكّرت أباها وخيّل إليها أنه ما زال يئن بجرحه القاتل تحت التراب!

كادت تصرخ إلا أن قدم أحدهم إلى وجهها كانت أسرع , وفي لحظات اجتمعوا عليها ومزقوا ملابسها ثم تناوبوا على هتك عرضها مثل الضباع .. أو الجرذان !

خالط صراخها ضحكاتهم الآثمة , وخالطت دماؤها عرقهم القذر , وكانت تتألم وتصرخ وتبكي وتنتحب ولا سامع ولا مجيب .

وبعد ساعتين من العذاب تركوها ملقاة على ظهرها في الزنزانة تنزف .. وتنزف .. وتنزف .. حتى انقطع النزيف , وكادت تنقطع معه الأنفاس !

حينها كان أبو دجانة يقول لأبي قتادة :

- والله لا يخزيك الله أبدًا , إنه ابتلاء وإن صبرت فليرينك الله ما تقر به عينك , دعنا نفكر وحتما سنجد طريقة لاسترجاعها منهم , وأنا متأكد أنها في عين الله .

وكان أبو قتادة يضع رأسه بين يديه خاشعا يرتعد جسده , ورغم جرح أبي العباس إلا أنه لم يتغيب عن تثبيت صاحبه ومواساته , ودخل عليهم أبو القعقاع فقال بصوت شديد :

- أنهوا هذه المهزلة الليلة , خلال أيام سنباغت معسكر جيش الإسلام , لا أريد مفاجآت .
نظر له أبو دجانة متفاجئا , فابتسم له أبو القعقاع ابتسامة صفراء فاقعًا لونها , ثم انصرف .

*****

استنشقت أنوف الشوام تراب مصر تحت وطأة البرد والرعد , تحت قطيرات المطر الباردة , في زاوية بعيدة من زوايا الدنيا , ليست بعيدة لكن ما أبعد أصحابها !
طرق الحاج سلّام الباب بعد صلاة العشاء, طرقًا خفيفا متأنيًا لئلا يفزع رهى وخالتها, فتحت أم مالكٍ الباب فرأته فاستبشرت, استأذن ودخل ومعه أكياس فاكهة وأرز ودقيق وزيت وسمن وسكر .
قالت أم مالكٍ :
- لا أدري كيف سنقدر على شكرك ! الله وحده من سيكافئك !
نظر إلى الأرض تواضعًا وقال :
- يا أم مالك , نحن عباد الله والمال مالُ الله
صمتت ثم تابع :
- وعندي لكم مفاجأة .
استغربت رهى وانقبض قلبها بلا مناسبة , واستعجلت أم مالك المفاجأة فتساءلت :

- بشّرنا يا ابن الكرام .
استنشق الحاج سلّام نفسًا عميقا, وأسند ظهره إلى المقعد العتيق الذي يجلس عليه تحت سقف الغرفة المهترئة, ثم قال :
- لا يمكن لكما أن تعيشا وحدكما هكذا, لابد لكما من رجلٍ يحميكما ويكون لكما سندًا وظهرًا في هذه الحياة الموحشة .
زاد انقباض قلب رهى فتابع الحاجّ :
- الخلاصة دون مقدمات مملة , عندي عريسٌ أحسبه من الصالحين أتيتُ بهِ لرهى , رجلٌ شهمٌ من خيار عباد الله , مشهورٌ عندنا بالتقوى والورع وحسن الخلق , كما أنه ميسور الحال مهيب الجناب , فماذا تقولان ؟
حلّ صمتٌ يتبعُ الصدمات , فيه اشمئزاز وحيرة , بغضٌ وامتنان ! تذبذبٌ على شفا جرفٍ من التيه والسخط والعجلة والظلام .
وضعت رهى يدها على فمها , وتاهت أم مالكٍ لحظةً عن الدنيا , ثم أغمضت عينيها ونظرت إلى السقف وقالت لنفسها يا جبااار السماوات , فاستبق الحاج سلّام جوابهما قائلًا :
- لا تستعجلا , غدًا آتيكما بالعريس تريانه ثم أتلقى ردكما .. السلام عليكم .
وانصرف تاركًا إياهما في صدمتهما , وأغلق الباب خلفه , وانهمرت دموع أم مالك.
استمر الصمت ساعةً أو يزيد , لم يقطعه إلا قول رهى تُسمع أم

مالكٍ وكأنها تكلمُّ نفسها :
- بدأ القرف !
نظرت إليها أم مالكٍ كأنها حسمت أمرها , ثم قالت :
- الأمر يستحق التفكير .
صدمت رهى , وانفجرت في البكاء , وقالت وهي تصرخ فيها :
- هل تظنينني حجرًا لا قلب لي ؟ زوجي مات من أسبوع !
- زوجك هو ابني يا رهى , لكن في هذه الدنيا .. لا يملك أحدٌ الخيار لشيء .
زاد بكاء رهى فقالت أم مالك :
- أتعلمين ؟ لم أكن أريد أن أتزوج أبا مالك , وكنت أبكي ليلة زفافنا , وصبر عليّ .. ومع الوقت صار هو كلُّ حياتي !
الزيجات لا تنبني على الحب فقط , قد يأتي الحب بعد الزواج .
ردت وهي تبكي :
- وقد لا يأتي , لا أريد أن أحب أحدًا غير أحمد .
- الحديث عن الحب في مثل حالتنا عته , نحن مشردتان , وكلها أيام وتلحق بنا بيان فنصير ثلاث مشردات , فماذا نفعل في هذه البلدة الغريبة ؟ هل نتكفّف الناس ؟
صمتت رهى , فقالت أم مالك :
- زواجك وابني لم تجفّ تربته ليس بأهون عليّ منك , لكن الدنيا أقذر مما تصورين أيتها الصغيرة ..

تساءلت رهى , من أين لها تلك الحكمة التي حلّت عليها فجأة لما وصلنا مصر ؟ , وصمتت ولم تتكلّم , فتابعت أم مالك :
- غدًا يأتي العريس , وحينها ليفعل الله ما يشاء .

******

مرّت على رهى ليلةٌ دكّت جدران قلبها , رأت أحمد في منامها يبتسم حزينا , فقامت تصرخ وأغشي عليها , وقالت لها أم مالكٍ لما أفاقت استعيذي بالله من الشيطان الرجيم , وعاودها الطيف فاستعاذت فزاد تبسمه فصرخت , ودارت الدنيا ألف دورةٍ كان مركزها تلك الغرفة , ورأت السقف يخرُّ فوق جبينها فيتفجر رأسها , ثم رأت أحمد يبكي .. ثم يضحك , ثم يبكي .. ثم هزّتها أم مالكٍ تخبرها بأن الصبح قد شقشق .. فعلمت أنه كان كابوسًا لم يبق من أثره إلا دمعٌ على خدّيها , ورعدة خفيفة في قلبها , وقالت أم مالكٍ أصبحنا وأصبح الملك لله .. الرحيم العليم .
ساعات وطُرق الباب فانقبضَ قلبُ رهى , ودقّ رغم انقباضه دقًا كقنابل بشار وقذائف روسيا وضحكات ترامب ..
كان الحاج سلّام وحده , يلبس بدلة أنيقة .. وفي يده بوكيه ورد أحمر , رحّبت به أم مالكٍ وصمتت رهى , دخل وجلس مبتسمًا , صمتوا جميعًا لحظاتٍ ثم قالت أم مالك :
- أخبرتنا أنك ستحضر العريس اليوم .

ضحك الحاجُّ سلَام ثم قال :
- وها هو أمامكما !
صعقت بيان وصدمت أم مالك , حاولت أم مالكٍ أن تتكلم فخانتها قدرتها , فقال الحاج سلّام :
- ماذا ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ؟ ألم تجرّبا عليّ حسن خلقي وكرمي ؟ لماذا تتفاجآن ؟
قالت أم مالك : لكن .. , فقاطعها لفوره :
- لكن ماذا ؟ هل تشككان في أخلاقي وديني ؟ هل هذا جزاء الإحسان إليكما ؟ أين قوله تعالى -هل جزاء الإحسان إلا الإحسان- !
ردت أم مالك :
- ليس القصد يا حاج , لكن أنت من سنّ والدها رحمه الله
- وما المشكلة ؟ هذه حجج واهية لا أرى لها موضعًا , في الزواج لا يكون السنّ عقبة ! تزوج نبينا صلى الله عليه وسلم ستنا عائشة وهو أكبر منها بعقود , وتزوج ستنا خديجة وهي أكبر منه بعقود . . العمر ليس عقبة !
قالت أم مالك :
- إذن فتزوجني أنا !
صمت الحاج سلّام ثم تبسّم بخبثٍ وقال :
- القلبُ وما يريد .. أنا أريدها هي , ويبدو أنكما لم تحفظا لي

الجميل , وهذا يجعلني أخاف منكما وأعيد النظر في ائتمانكما على البقاء في هذه الغرفة ! فمن لا يحفظ الجميل قد يغدر ويفسد .
صمتتا وجلتين عاجزتين ضعيفتين فقال :
- لن أستعجل ردّكما , كما أني لن أستعجل أخذ القرار في أمر بقائكما في الغرفة , سأنتظر الجواب الليلة , السلام عليكن .

******

في الشامِ؟ .. لا شام !
لم يعد إلا الركام .. زفراتٌ من هنا .. عبراتٌ من هنا .. تحت أنقاضٍ تراءت جنّةً عند النظام
وتفقّدت طفلةٌ ثدي أمها , فلم تجد إلا الفطام ! لم يعد لبنٌ , لم يبق إلا دماء نزفتها أجسادُ الكرام . .
بكى الطفل , فخاله الجندي يهتف في الظلام ! فاستقرت طلقة الجندي في كبد الطفل .. فتراقص الجندي طرِبًا .. هزِجًا .. غرِدًا .. يهتفُ : مات الرضيعُ .. وعاش النظام !
كانت بيان في الفيلا العتيقة لا تكاد ترى الناس أو تسمعهم , انكبت على مصحفها تقرأ القرآن وتبكي , ثم تقرأ وتبكي .. ثم !
شعرت بالبرد كل لحظةٍ ثلاث مرات , مرةً للبرد ومرة لأحمد ومرةً كانت تجلدُ بها نفسها ألمًا وحسرة .
قررت ليلتها أن تذهب إلى أخيها مالكٍ على الجبهة , ماذا أفعل بين

هؤلاء الحمقى في الفيلا؟ سرعان ما نسوا أحمد , وأمه , وزوجه , ونسوني .. لا أحد يبكي أحدًا في هذه الدنيا أكثر من ثلاثِ ليالٍ أو أقل .

جمعت أمرها , وانسلت في ظلام الليل كطيفٍ لطيف , بين الحشائش والزروع .. تطوي الأرض بخفة وسرعة استمدتها من نقطة سوداء نكتت في قلبها عندما لامست قذيفة الطائرة بساط الأرض يوم الزفاف , أقسمت لنفسها أن الشمس ستشرق يومًا على تلك المملكة التي غابت, وأن الدنيا ستركع يومًا أمام عرشها, وأن المحيط سينشقُ ليخرج القارة الضائعة, وقالت لنفسها أتُرى أهلها ضيعوها كما ضيع أهلنا بلادنا؟ أتُرى أحلام من فيها دسّت في التراب كما أحلامنا؟

توقفت ونظرت إلى السماء وقالت: لأنك تسمع وترى أطمئن, ولأنك ترحم وتكرم أصبر, ولأنك تقدر ولا تعجز آمُل, ثم خالت جسدا خلفها يطاردها فأسرعت , وأسرعت .. حتى وصلت بعد مغامرةٍ ظنّتها خطيرة إلى الجبهة , نادى جندي الحراسة بصوتٍ جهوريٍّ حازم .. اثبت وإلا سأطلق النار !

رفعت يديها للأعلى وقالت بخوف :

- أنا بيان , أخت مالك علوش .

لحظات وجاء أخوها من داخل المعسكر يركض مسرعًا , احتضنها , وقبل ما بين عينيها , وقال :

- ما الذي جاء بكِ إلى هذا المكان الخطير يا بيان ؟ ألفتُكِ أعقل من

ذلك!
بكت فضمها إليه وأخذها إلى غرفته ..
قال لها لما جلسا وهدأت :
- الدنيا ستمر يا بيان , كلنا ترابٌ يتحرّك على الأرض .. ما أسرع الفناء وما أقرب اللقاء .
- لا أستطيع يا مالك , لا أستطيع أن أفكر مثلك .
زفر زفرة حزينة ثم قال:
- غدًا سيعلمك الزمان .
- متى سألحق بأمي ؟
- رتبت لكِ الإجراءات , أيامٌ وتكونين عندها إن شاء الله
صمتت فتابع ممازحًا :
- أريدك رجل البيت من بعدي
نظرت إلى الأرض حزينة وقالت :
- بعدَك ؟
ضحك مالك وقال :
- يالكِ من فتاةٍ كئيبة ! , لا تقلقي .. لا أنوي الموت في الفترة الحالية .
ضحكت فتفجّر فجأة من الخارج صراخ ورصاص, ودقّ جرس الإنذار معلنًا عن هجمة مباغتة , فزع مالكٌ وارتاع خوفًا على أخته وأمرها أن تختبئ تحت المنضدة , ووعدها أن كل شيء سيكون بخير , ثم تناول سلاحه وانطلق يزأر في الظلام !

*****

في الكافيه كان آسر وآسيا يجلسان وحولهما ركامٌ من الهموم, الفضيحة والعار والكره والبغض, وكانت آسيا تصبّره بالله علّه يهدأ, أخبرها أن أمه ستجري عمليّة خطيرة لأجل جرحها الليلة, فقالت له ربّك رحيم ودود .

كان يعلم أن أمل أمه في البقاء ضعيف, وكان عقله مشتتا بين خوفٍ وبغضٍ وأسى وحسرة ! يجلس بجسده وروحه ممزقة في أتون حربٍ شنّتها جهاد وخاضتها أمه واستشهد من قبلها أبوه وها هو يضمد جراحه مع آسيا .

سأل نفسه كيف سأحضر تلك الملعونة؟ أين أبحث وكيف أبدأ؟ مَن محمّد هذا؟ لعنة الله على الحمقى !

طلب من أحد معارفه أن يبحث له حول إجراءات التهريب لسوريا, علّه يكتشف طريقةً لمراسلتها أو حتى الذهاب إليها!

وعلى أعتاب غرفة العملية كانت أمه على السرير ضعيفة هزيلة, مستلقية على السرير الأبيض, سرير الإعدام, وفي يدها المحاليل الطبيّة معلقة تنظر إلى أمه بلا أعين, رأى غراب الموت قد حط على كتفها يعد ما تبقى من الأنفاس , علم أنه اللقاء الأخير فانفجر بين يديها باكيًا , علمت ما به فربتت على كتفه وهمست باسمةً : لا تقلق , الله الشافي.

تذكّر مرةً كان فيها صبيًا يلعب في حجرها تقبل ثغره وتقول له : متى ستكبرُ يا آسر؟
ومرة جاء يبكي لما ضربه أحد الصبيان فاحتضنته ودارت به في الصالة حول نفسها حتى انفجر ضاحكًا !
ومرة مرض فمرضت, وعوفي فتعافت .. ومرة بكي فبكت وضحك فضحكت .. ومرة سهر فسهرت ونام فنامت
ومرةً ومرةً ومرةً وألف ألف مرة .. ما أقبح الذكريات على أعتاب القبور!
زاد بكاؤه وهوى على يدها يقبلها , عانقها العناق الأخير , عناقٌ بثّ في روعه معانٍ لم تبثّها الكلمات على طول أمدها به , قالت له :
- أعدك أنني لو خرجت بسلامة الله سأخطب آسيا لك
بكى, ودخلت لعمليتها, وانتظر, وبعد ساعات خرج الطبيب ناعيًا يصبّره ويذكّره بالله, وسالت دموعه على نحره, وجاءت آسيا فبكت لما رأت دموعه, وأرخى الحزن سدوله فاسودّ المكان, وقال الطبيب كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت, فهمس آسر وهو يبكي : ومن النفوس من تذوقه مرّات .
ثم لنفسه : حين تموت الأم يبدأ السفر, اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنّا بُعده.

*****

انفضّ غبارُ المعركة الليلية مع انفضاضِ الظلامِ عند الفجر , رمى الصبح أشعته فلامَسَت ظهرَ مالك علّوش وهو ملقى على وجهه غارقًا في دمائه , بعد أن تلقى سبعَ طلقاتٍ في صدره !

فارق الكريمُ الدنيا بوجهٍ نضِر , وعينينِ تحملان الحبّ والشفقة لأخته , ورشاشٍ يشهد عند الله على بسالته حين كان اللقاء !

أفاقت بيان من الإغماء فوجدت نفسها مصفّدةً بالحديدِ , وحدها كانت الأنثى بين الأسرى , ومرّت في الصف وعيون الجندِ تستغربها , ما الذي أتى بها إلى مثل هذا المكان ؟

مرّ الأسرى مسلسلين خلف بعضهم بينَ صفّين من جندِ كتيبةِ الفاروق ينظرون إليهم بفخر , سمعت بيانُ صوتًا يتغني شعرًا , صوتًا تألفه وشعرًا تألفُه ! كان الصوت يقول :

- وكنا الأيمنين إذا التقينا . . وكان الأيسرين بنو أبينا

فصالوا صولةً في من يليهم . . وصُلنا صولةً في من يلينا

فآبوا بالنِّهابِ وبالسبايا . . وأُبنا بالملوك مصفّدينا

تتبعت بيان بعينيها وأذنيها مصدر الصوت بين الصفوف بهدوءٍ لئلا تستفز الجنود , حتى وصلت إلى الصوت فكانت المفاجأة ! صرخت بأعلى صوتها : غسااااااان !! أخيييي !!

صُدِمَ أبو دجانة وانتفض , نظر إلى الصوت فإذا به يرى أخته بيان علوش! , هرع إليها مهرولا بين الصفوف , نظرَ إليها متعجبًا , عيناه تسألانها ما الذي أتى بكِ ؟! وخيّم صمتٌ يحمل في ثناياه العجب

على الجميع , هرولت بيانُ إليه تصارع أصفادها , بصعوبة قطعت الأمتار التي بينهما ثم احتضنته وبكت .
اقترب أبو قتادة وأبو العباس يستخبران صاحبهما عن ما يجري , ورأى القائد أبو القعقاع المشهد فاقترب بخطوات ثابتة ثم قال :
- ما الذي يحدث ؟
نظر إليه أبو دجانة , ووضعت بيان وجهها في صدر أخيها لئلا ترى الدنيا ثانيةً , وقال أبو دجانة :
- تعلمُ أن هذه الكتيبة التي هاجمناها كان فيها أخي مالك , وقد تفاجأت الآن بأن بيان أختي كانت معه .
رد أبو القعقاع بحزم واستنكار :
- ثم ماذا ؟
تفاجأ أبو دجانة من رد فعل قائده , وقال في نفسه ألن يكفّ هذا الأحمق عن التعالي كعادته , وأجاب :
- ثم لا شيء , فكّوا أصفادها , وسأصحبها حتى أوصلها إلى مكانٍ آمن لأحد أقربائنا .
غضب أبو القعقاع ورد بقسوة :
- لن يحدُث , منذُ متى وأنت تصدرُ الأوامر ؟
ذُهلَ الجميع , وثار أبو دجانة إلا أنه تماسك , فقال :
- فما أوامُرك إذا يا حَمَد ؟
زاد غضب أبي القعقاع لما ناداه باسمه دون كنية , إلا أنه أسرها في

نفسه ولم يبدها , ورد :
- أختك كافرةٌ بالله العظيم , مرتدةٌ لأنها والت الكفار الذين يحاربون الخلافة الإسلامية , ويحاربون شرع الله , ويجري عليها ما يجري عليهم من أسرٍ ورقٍّ , أو قتلٍ , أو فداء , وإن أنتَ واليتها كفرت مثلها لأن موالاة الكافر كفر , وإن اعترضت كفرت لأنك تعترض على حكم الله في الكفار .
صُدم أبو دجانة , وازدادت بيان تمسكا بثيابه , وغوصًا بوجهها باكيةً في صدره , وقال أبو دجانة :
- إذن هبها لي , أو أفتديها منك
رد أبو القعقاع ببرود :
- أرفُض , نحن نحتاج الخدمة أكثر من حاجتنا للمال , ستبقى أمةً عندنا.
تفجّر بركان أبي دجانة وصرخ فيه :
- إذن تنتظر مني أن أرى أختي تساق لخيمتك لتضاجعها , وأحضر لك الماء الساخن لتغتسل بعدها ؟
حافظ أبو القعقاع على بروده ورد :
- لا تتفوه بكلماتٍ قد تندمُ عليها حينما تهدأ .
ثم صرف بصره لأحد الجنود وقال له بلهجة الأمر :
- أحضرها إلى الصف ثانيةً .
أشهر أبو دجانة رشاشه وقال :

- أقسم أنه لو اقترب منها سأقتله .
عبثًا حاول أبو قتادة وأبو العباس أن يحتويا الموقف , وأشهر أبو القعقاع مسدسه وصوبه تجاه أبي دجانة , وقال :
- ما تفعله خيانةٌ عظمى , أمامك خمسُ ثوانٍ لتلقي سلاحك .
صمتَ الجميع , وتوقّف الزمان لحظة أو لحظتينِ , وتفجّرت الأحداث من جديدٍ , وقال أبو قتادة لأبي دجانة ألقِ سلاحك ولا تقلق , سنحلها حالا , وزادت قبضةُ أبي دجانة على رشاشه , وقبضة بيان على ثيابه , وارتفع عويلها , وارتفعت زمجرتُه , وعدّ أبو القعقاع .. خمسة ! , واقترب أبو العباس وهوبعدُ ما زال مصابًا يحاول انتزاع سلاحِ صديقه وتهدئته فضربه أبو دجانة على وجهه بظهر رشاشه فخر على الأرض لشدة الضربة , وعدّ أبو القعقاع .. أربعة .. ثلاثة , واشتد احمرارُ أبي دجانة , وابتعد الكل عنه إلا أبا قتادة يذكّره بالله , وعدّ أبو القعقاع اثنان .. , ووجّه أبو دجانة سلاحه إلى أبي القعقاع فأطلق أبو القعقاع لفوره رصاصته فاستقرّت بين عيني أبي دجانة !
وهاجم الصمتُ الجميع , وانقض عليهم الفزع , وخرّ العملاقُ على الأرض وفوقه سقطت أخته بيان مغشيًا عليها , وهاج أبو قتادة وصرخ حتى كاد ينشقّ السحاب لصرخته, يصرخ ألف مرة ومرة, ألف مرةٍ لجهاد, ومرة لأبي دجانة, وقام أبو العباس من على الأرض يزحف تجاه صاحبه , وضخّت الشمسُ فجأةً حرارتها على الجميع , وأمسك الجنود بأبي قتادة وأبي العباس لئلا يرتكبوا حماقةً تلحقهم

بصاحبهم .. وأودع أبو القعقاع مسدسه في حزامه , ثم أعطى الجميع ظهره وانصرف قائلًا :

- أمامكم دقائق لننهي هذه المهزلة ونتحرك .

*****

الفصل الثالث

الأيام خزائنُ المصائب , تحبل بالغيب , وتلد الرزايا .. ترضع الصغير لتفطمه عن الصبر !

على شاطئ الزمان ثمّت مقبرة , نقش عليها : هنا يرقد حمقى .. ظنّوا أنهم لا يموتون.

وعلى الضفّة الأخرى ثمّت مقبرةٌ أخرى منقوشٌ عليها : توسعةٌ للمقبرة القديمة ! ألا ما أكثر الحمقى !

تزوّجت رهى بالحاج سلّام , أو قل الفاسق سلّام , أبدى لها عن وجهٍ عفنٍ كان يختبئ تحت ثياب -الحاج- ! , تزوّجها سرًا لئلا تعرف -أم العيال- بأمره فتنغّص عليه عيشه , قال لها يوم الزواج ومعه صاحبٌ له : وليك الآن صالحٌ من صالحي المؤمنين , وصديقي هذا أصلحُ من عرفَت بورسعيد !

كان لا يأتيها إلا إذا أراد أن يبصق فيها شهوتَه , يتّصل قبلها بساعةٍ لتخرج أم مالكٍ من الغرفة لأي مكان , ثم يذهب فيقضي وطره ويرتدي ملابسه ويلقي لها ببعض المال , فينصرف !
ينصرفُ وتبقى نظرته الأخيرة , القاتلة , المقززة !
كان يأتيها ورائحة الخمر تفوح من بين أسنانه المتهشمة , يمسّها بجلده المقرف العجوز , تشمئز منه ويخيّل إليها أنها تنام مع ضفدعٍ كبير ببشرةٍ ذابلة لزجة ورائحةٍ كريهة عفنة , وطاقة –لحسن الحظ- سرعان ما تنفد!
كان يستلذ بسبها وضربها وتعذيبها وأحيانًا جلدها إن أداه -كيفه- إلى ذلك , وكانت تئن صامتةً بلا أنين , وتتوجع بلا تنهيدةٍ أو زفرة! , كانت حمّالة في قلبها الحطب , سرعان ما يشتعل الحطب! , كانت تودّ لو تمرّغت بعده بالتراب سبعًا .. أو سبعين
ولأننا بشرٌ فسرعان ما يلهينا الروتين عن الألم , سرعان ما يصبح الألم روتينا مملا , ويأخذ الحزن والتقزز –وكل المعاني القبيحة- مكانه المحترم المميز في جدولنا اليومي , أو الأسبوعيّ في حالة رهى إن أردنا الدقة , فالحاج سلّام –رغم كل شيء- قد جاوز الخمسين !
وكانت رهى مع كلّ ذلك تدّخرُ ما استطاعت من النقود التي يتركها لها , وحين تسألها أم مالك عن السبب تردّ بطريقة لم تعتدها منها :
- القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود .

ذات مرةٍ جلست رهى وأم مالكٍ تتذكران حلب , ورغم انزعاج رهى من حكايات أم مالك المتكررة إلا أنها كانت تستمتع رغم هذا الانزعاج , تستلذ بهذا الملل , وكأنه خالط منها اللحم والعظم .
أين بريقٌ كان يُرى في عينيكِ فيأسر ؟ وبسمةَ حزنٍ بين شفتيك لا تمنّ ولا تفتدي بل تقتل؟ أين أحمد منكِ ؟ بل أين أنتِ منكِ ؟
قالت لها أم مالك :
- أتعلمين يا رهى , لقد تغيرتِ كثيرًا !
تعجّبت رهى وردّت :
- كيف ؟!
ضحكت أم مالك وقالت :
- لم تعودي تلك الفتاة البريئة , أشعر أنك صرتِ صاحبة جزارة !
بادلتها رهى ضحكة ثم قالت :
- الغربة تعلّم .
صمتتا قليلا , ثم قالت أم مالكٍ بعد أن تنهدت تنهيدة يأسٍ :
- ترى أين بيان ومالك ؟
- أما زالا لا يردان ؟
- بلى , وقد بدأ الشيطان يفعل برأسي الأفاعيل !

تنهدت رهى وقالت وعيناها تكذّب ما ستنطق به شفتاها :
- كلُّ شيءٍ سيكون على ما يُرام .

*****

على بابِ آسيا كان ثمّت آسر , يستغيث بعقله من حمق قلبه , ولا مغيث !

بعدما ماتت أمه تمزّع قلبه وتهتّكت نياطه, عبثًا حاول أن يبحث عن أخته جهاد, ولا معلومات, وعبثًا حاول أن يوقف عقله عن التفكير في مستقبله وآسيا, قتله الأرق فقال لنفسه سأقطع الشكّ باليقين وأتقدّم لخطبتها , هو يعلم أنه كاذب في شكه وفي يقينه المنتظر !

تذكّر تحذير آسيا, ورجائها له أن لا يفعل, وإخبارها له عن أخلاق أبيها وأخيها اللذين لا يُنتظر منهما خيرٌ, وتذكر وعده لها أن كل شيءٍ سيكون بخير ..

على باب بيتها , وببزّته الأنيقة , وبوكيه الورد الأبيض, للحظاتٍ خال فيها أن الزمان كان ينتظره , وأن العقارب آلت على نفسها ألا تدور حتى ينهي التفكير في قراره ؛ أجمعَ أمره وطرق الباب بيد مرتعشة , جرّب أن يخمّن ما ينتظره فارتد إليه خياله خاسئًا وهو حسير .

فُتح الباب , وكان المكان مهيّأً للعريس المنتظر الذي حدّثت آسيا أهلها به بعد أن يئست من ثنيه عن قراره, وكان أبوها وأخوها وأمها يتساءلون في أنفسهم عن المشكلة البسيطة التي أخبرتهم آسيا أنها موجودة في العريس , دخل آسر وقدماه تهددانه بالخذلان , أول ما رأى كان وجه أبيها وفي فمه سيجارةٌ تشتكي إلى الله منه , وفوقها

أنفٌ ذابلٌ دقيق , وفوقه عينان سوداوان لمّاحتان , تذكّر الرائي من أول نظرةٍ بجهنّم أو سقر !
بجواره كان أخوها الأصغر -خالد- , أكبر منه بسنوات معدودة , مظهره يوحي بأنه سائق تاكسي , أو ربما توكتوك! , لم يأخذ من أبيه إلا عينيه وجهنم وسقر !
ساءل نفسه , كيف خرجت هذه من هؤلاء ؟ سبحان الذي يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحي ! فالق الإصباح !
جلس على الكنبة , وحلّ صمتٌ مريبٌ , ينتظر الحاج -صبري- أبو آسيا أن يخبرهم آسر بأن أخيه الأكبر قادم بعد قليل ليخطب آسيا , وتنتظر آسيا وأختها من خلفٍ ستارٍ انفجار القنبلة !
تنحنح آسر وقال :
- السلام عليكم يا عمي .
أبدى الحاج صبري بشاشةً وقال :
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا بني , يا ألف أهلا وسهلا , نورتونا والله
- البيت -منوّر- بأهله يا عمي
- الله يكرمك , وأين الجماعة ؟
ثم مازحًا :
- لا بدّ أنهم أرسلوك قبلهم لتعطينا بوسامتك فكرة عن وسامة العريس حتى يأتي .

احمرّ وجه آسر ثم بتوتّر قال :
- أنا العريس يا عمّي , أتيت لأطلب يد ابنتك آسيا
انتفض الحاج صبري , وفوجئ خالد , وحلّ صمتٌ طويلٌ في زمنٍ قليل , حاول آسر أن يستبق الأحداث فقال :
- أعلم أن هذا قد يبدو غريبًا , لكني فكّرت كثيرا وأنا متأكد تماما من قراري .
قام خالد وهو يصيح :
- هل أنت سكران يا ابن العاهرة وأتيت لتتسلى علينا ؟!!
صدم آسر من رد فعل خالد العجيب , الذي يتناسب تماما مع تشوّهات وجهه الفاضحة عن تاريخه السابق , وقال الحاج صبري بنبرة غاضبة :
- هل تهزأ بنا أيها الطفل ؟ عريس ماذا وزفت ماذا ؟! أنت أصغر من أخيها الأصغر !
حاول آسر أن يتكلّم , إلا أن خالدَ قاطعه بفجاجة وقبح قائلًا :
- يبدو أنك مراهقٌ بلغت حديثًا وقد شوّهت الأفلام الجنسية خيالاتك فجعلتك تتقدم لفتاة في سن أمك , اخرج يا ابن العاهرة من المنزل قبل أن أقتلك !
قام آسر مذهولا من وقاحة أخيها, كثيرا ما حكت له عنه لكنه لم يتصوّر أن وقاحته بلغت هذا المبلغ, ارتفعت الأصوات وخرجت آسيا من خلف الستار وأمها وأختها تحاولان منعها , خرجت تدافع عن

آسر وتهاجم أخاها , فشدّها خالد من شعرها وهي تصرخ وجرّها إلى الحجرة الداخلية وسبابه يصل إلى آخر الشارع وصوت ضربه لها يهزّ جدران المنزل , وقال لها أبوها : أهذا هو العيب البسيط أيتها الفاجرة ؟!

ثم طرد آسر من المنزل , طردًا سفك دماء كرامته, فخرج وهو ما زال تائهًا لم يستوعب ما رآه , يظنّ نفسه في حلم , وينتظر لحظة يسقط فيها من على سريره ليفيق من هذا الكابوس القذر فيحمد الله ثم يقلع عن فكرة التقدّم لها , لكن هيهات هيهات ! هي الحقيقة بعلقمها !

*****

كاد أبو قتادة يموت حزنًا وكمدًا, وبين الذكرى والعجزِ يهلك الرجال! يفكّر كيف سينقذ جهادًا من مخالب الجيش النظامي, وبأي طريقة سيخرجها من دهاليز سجونهم, ثم يتخيل ما الذي ينالها الآن فيرتعد! وكانت جهاد في أعماق الزنزانة تستشعر جنينها في أحشائها كأنه يتحرّك!, بعدما ظهر الحملُ على بطنها مع تكرار الاغتصاب الجماعيّ يوميًا, يهيأ إليها أن خنزيرًا سيخرج من بين قدميها عند الوضع! تبغضه وتشمئز منهُ بقدر بغضها لأبيه.. أو آبائه!!

ورغم أنها في أيامها الأولى إلا أنها كانت تتوهم ركلاته وحركاته, تتوهمها طعناتٍ يكمل بها ضرب أبيه من الخارج ! بكت حتى انشق

حلقها فلم يُجدِ البكاء, وارتعدت من البرد والألم والخوف والندم فلم يقدّم ولم يؤخّر!

استحت من أن ترفع كفّيها وعجزت عن الدعاء, كأن بينها وبينه سورًا من لهب ونار! ترددت أن تتخذ القرار, عجيبٌ أن الخوف كان يدفعها إلى المسارعة به! بحثت في جنبات قلبها عن شفقةٍ تحملها لهذا الجنين فلم تجد إلا قيحًا وصديدًا, بقدرما بصق فيها أولئك الخنازير شهواتهم, وقدرما مزّقوا جسدها بأظافرهم وألسنتهم!

قررّت بعد ترددٍ, قامت ببطئٍ وعجزٍ إلى صحن الطعام الحديديّ, أمسكته فاهتزت يدها من البرد, تأملته لحظاتٍ ثم بدأت بضرب بطنها به بكل ما لديها من قوة وعزم, بكل ما لديها من كرهٍ وحقدٍ وندم, وعارٍ وخزيٍ وتقزز!

تتابعت الضربات والألم, والصرخات التي لا تلفت الأنظار في الزنازين!, تسبّه بأبيه وتضرب بطنها لتتخلص منه!, شعرت أن هذا وحده لن يكفي فظلّت تقفز وتضرب الأرض بقدميها بكل قوتها, وتصرخ ثم تضرب بطنها بالصحن, ثم تقفز وتصرخ, وتتسارع أنفاسها وتتعالى صرخاتها ثم تضرب بطنها بكلّ قوة وبغض, ثم تلعن الأيام والبشر والناس, وتلعن المقادير ثم تستغفر, ثم تضرب بطنها ثم تقفز, وبدأت تنزف وزاد الألم فزاد الصراخ, وزاد اليأس والجزع والخوف, وزادت لفحة البرد فانتفضت ثم ضربت بطنها بشدة, وتدفّق الدم فخرّت على وجهها ملقاةً على الأرض, تنزف ويخفت نفسُها, ثم

تنزفُ .. وتنزف.. وتتباطأ النبضات, وتخفت الأنفاس .. حتى اختفت !

تردّد أبو قتادة مراتٍ قبل أن يرسل لمصطفى الشريف, لا يدري أي دافعٍ يدفعه إلى مناقشته, ومجادلته! أهو العجز الذي ينسيكَهُ التناحر؟ أم هو الحزن الذي يذهبه الانشغال؟ أم هو طرفٌ خفيٌّ لشكٍ تريد أن تنتصر عليه! وتأبى أن تفرّ منه؟

أرسل له, وقد علم موعد تواجده على الفيس بوك :

- يا شيخ مصطفى.

فرد الشيخ مصطفى بعد قليل:

- السلام عليكم

- وعليكم

أسرّها مصطفى في نفسه ثم تابع :

- كيف حالك ؟

- بخير, كنت أريد أن أسألك .. أليست موالاة الدولة الإسلامية أفضل من موالاة الطواغيت ؟

تفاجأ مصطفى بمسار الحوار الجديد, واستجمع تركيزه وأجاب :

- الولاء والبراء هو أوثق عرى الإسلام, فالولاء هو صرف معاني الانتماء إلى أخيك المسلم, والبراء هو الانسلاخ من الكافر أيًا كانت قرابته منه ..

لكن الولاء لا يعني الموافقة التامة, فنعم لأنك مسلمٌ لك درجة من

الولاء لكنني أيضًا أتبرأ من بدعك الغليظة, وقتلك وسفكك للدماء وتكفيرك للمؤمنين, حتى وإن كنت أقرب لي من الكفار إلا أنك عدوٌّ طالما تسفك الدم الحرام وتكفّر المسلمين .

رد أبو قتادة :

- فماذا أستفيد إذن من موالاتك لي؟

- تستفيد أنك أقرب لي من الكافر, فإن جاء الكفار لمحاربتك ظلمًا فأنت أقرب لي منهم, لكن لا يعني هذا موافقتي على ظلمك وضلالك, بل يجب أن تتوب إلى الله منه, وأن تتحدوا مع الفصائل الأخرى في قتال مجرمي بشار ومجرمي روسيا وأمريكا وإيران الذين أفسدوا سوريا ودمروها وأنتم ساعدتموهم على ذلك بتطرفكم, فوفرتم لهم مبررا لهذا الدمار !

- لكن الفصائل الأخرى لا تقبل التعاون !

- بالطبع لن تقبل ! لأنكم تريدون منهم أن يكونوا تحت رايتكم, وتعتبرون أنفسكم دولة الإسلام ولكم سلطان على الناس كلهم! وما أنتم إلا فصيل مثلهم .. فالتعاون يكون بين أقرانٍ وأنداد, لا بين رئيس ومرؤوس ! اتحدوا جميعًا في مواجهة الكافر المحارب الذي يدمر بلاد سوريا!

اغتاظ أبو قتادة, وزفر بضيقٍ ثم كتب :

- تريدنا أن نتعاون مع الفصائل المرتدة التي تحاكمت إلى الطاغوت وتفاوضت معه !

- ألم أقل لكم أن مشكلتكم الرئيسية هي جهلكم بالشرع ؟ من قال أن التفاوض مع الكفار تحاكمٌ لغير ما أنزل الله؟ من قال أنه حرام؟ ألا تعلم أن التفاوض معهم قد يكون واجبًا لو كان فيه مصلحة المسلمين؟ ألا تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم تفاوض مع الكفار في صلح الحديبية وعقد معهم صلحًا؟ من صوّر لكم أن المسلم ثورٌ ينطح ولا يرى ولا يسمع؟!

أولى لكم من هذا الجهل أن تتحدوا ضد بشار, ضد راية الطاغوت الحقيقي .. لا أن تتنازعوا وتكفروا بعضكم فتساعدوا الطاغوت بتفرقكم

قاطعة أبو قتادة قائلًا :

- حتى لو لم يكفروا, فلا اتحاد مع المبتدعة الضلّال !

- بل معهم اتحادٌ ضدّ الكفار, ألا تعلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه, الرجل الذي ظلمته داعش لما انتسبوا إليه, أفتى بالاتحاد مع الذين أعلنوا إسلامهم من التتار رغم بدعتهم وضلالهم ضد الكفار المحاربين ؟!

لذلك فرغم أني أراكم مبتدعة ضُلّالا, إلا أنه لو قررت أحد دول الكفر أن تغزو الكعبة مثلا لوجب الاتحاد بيننا جميعًا في حمايتها, رغم اعتقادي بضلالكم المبين, وغلوكم وخروجكم عن صحيح الدين !

رد أبو قتادة :

- لا أخفيك سرًا, هذا البرود الذي تتعامل به مع أولئك الصحوات

الكفار هو الذي يجعلني أحكم بكفرك, فهم كفارٌ وإن رغمت أنوف .. ومن لم يكفّر الكافر فهو كافر مثله !

فكّر مصطفى قليلًا ثم أجاب :

- حتى لو سلّمنا بأنهم كفّار, فقاعدة -من لم يكفّر الكافر فهو كافر- هذه في الكافر المتفق على كفره, الذي كفّره الله ورسوله .. مثل اليهود والنصارى

أما الكافر الذي ليس في تكفيره نصّ, بل تكفيره باجتهاد العلماء ؛ فمن لم يكفره لا يكفُر, ألا ترى أن كثيرًا من العلماء كفّروا ابن عربي والحلاج وجلال الدين الرومي وابن الفارض والفاطميين الذين حكموا مصر في فترةٍ من الفترات, ومع ذلك لم يكفّروا من لم يكفّرهم ؟

لأن كفرهم إن كان تبيّن لبعض العلماء, فلا يستلزم أنه تبيّن للجميع, بل قد يخفى على البعض .. وهذا كلّه بافتراض أن هذه الفصائل كافرة, فأيضًا لا يمكنك أن تكفّرني لأني لا أكفرهم , فكيف وهم مسلمون لم يرتكبوا الكفر؟

تحيّر أبو قتادة, ثم قال :

- أتريد لعقلي أن يستوعب أن أراهم على موائد الكفار ثم لا أحكم بكفرهم؟

تبسّم مصطفى الشريف, ثم أجاب :

- يا بني, ليس كلّ تعاملٍ مع الكفار كفرا

بل منه ما هو مباح مثل البيع والشراء والإجارة والتجارة ..
ومنه ما هو حرام مثل أن يتزوج الكافر من مسلمة وأن تحبّهم رغم كفرهم بالله, وأن لا تبغضهم لأجل كفرهم, وأن تتشبه بهم في غير الكفر ..
ومنه ما هو كفرٌ كأن تتشبه بهم في الكفر فتحمل الصليب على رقبتك مثلا, أو تخرج في جيش الكفار الذي يرفع راية الكفر ويعلن الكفر الواضح ليحارب جيش المسلمين الذي يرفع راية الإسلام ويعلن الإسلام, أو أن تحبّ الكافر لأجل كفره, فتحبّ النصرانيَّ لأنه يعبد الصليب, وغير ذلك ..
أما أغلب صور موالاة الكفار فليست كفرًا أصلا, بل الأغلب محرم بلا كفر, فتعميم كل صور الموالاة على أنها ناقض من نواقض الإسلام خطأ كبير, وضلال مبين !
فضلًا عن أن هذا التعامل الذي تتحدّث عنه وتكفّر لأجله الفصائل المجاورة لكم في الحرب ليس موالاة أصلا, بل هي مفاوضات مباحة, وقد تجب لو كان فيها مصلحة المسلمين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية, وأخبرتك بذلك منذ قليل .. فتهربت من الرد عليه ! . . .

*****

شقّ بهيمَ الليل طرقٌ شديدٌ على باب رهى , مع صياحٍ مفزعٍ ,

انتفضت هي وأم مالك من على فراشهما , سمعت صياح الحاج سلّام ففتحت الباب مستغربة , فانقضّ عليها مخمورًا ينهشها بشراسة ويمزّق ثيابها من عليها , فزعت وقاومته ونبّهته لوجود أم مالكٍ , فقال وهو مستمر في تمزيق ملابسها :

- فلتذهب أم مالك إلى الجحيم

بكت أم مالكٍ من الفزع وقالت وقد انفجرت وعجزت عن التصبّر :

- أما تستحي ! نحن في منتصف الليل أين سأذهب الآن ؟!

وكأن الشيطان تلبّس به بعدما تكلّمت , توقّف فجأة ونظر إليها بعينين حمراوين يعتليهما السكر , ثم توجّه إليها يتطاير منه شرر الغضب , ودفعها دفعة أسقطتها أرضًا وصرخ فيها وهو يهذي :

- تأمرينني أن أستحي أيتها الداعرة ؟! أهذا جزائي أني تلقفتكما من الشارع قبل أن تنهشكما الكلاب ؟

واستمرّ بضربها بهستيرية وهو يصرخ مخمورًا حتى كاد يزهق روحها , يضرب ويسبّها ويطعنها في عرضها وعرض أمها وأم أمها ومن رآها أوجاورها يومًا , خفتت أنفاسها شيئًا فشيئًا , ثم فجأةً صرخ الحاج سلّام متألمًا وسقط لفوره على جنبه دون حراك !

استعادت أم مالكٍ وعيها بصعوبة ففوجئت بسكين استقر في عنق الحاج سلّام , وبجواره رهى منهارة لا تتحرك من الذعر ويدها ملطخة بدمائه , وبدأ ديك الجيران يصيح مؤذنًا باقتراب الفجر !

دارت الدنيا دوراتٍ سريعة, وارتعد جسد رهى , وبدأت في البكاء

والنحيب في هدوءٍ خوفًا من أن ينتبه الجيران ..
تقسم بهمسٍ شديد لأم مالكٍ أنها لا تدري ماذا حدث, وتبكي بخوفٍ وروع ..
واشتدّ الديك في الصياح !
استجمعت أم مالك قواها في لحظاتٍ, كما تفعل عند كلّ رزيّة ومصيبة, ثم قالت بحزمٍ وهي تفتش جيوب الحاج سلّام لتستخرج ما معه من مال :
- اجمعي أمتعتنا وأحضري كل المال الذي معك , سنرحل بعد خمس دقائق .
قامت رهى مفزوعة تجمع الأمتعة وتحضر المال من مخبئه , وفي دقائق انصرفتا إلى غير وجهةٍ , تسابقان الفجرَ , وتنزفان الشام , وتفران من الجريمة , الجريمة النبيلة !

*****

استمرّ خالد في ضرب أخته, وساعده أبوه في منع أمها وأختها -نور- من الدفاع عنها , ضربًا أليمًا مبرحًا , كأنه ينتقم لحياته البائسة بضرب هذا الجسد الضعيف الهزيل !
كان لا يرقب فيها عند ضربها إلًا ولا ذمة , رمى بها على الأرض وأوجعها ضربًا بقدمه , في بطنها وصدرها بل وحتى وجهها , كانت

تصرخ ولا يستغرب الجيران , لطالما صرخت أمها على مرّ السنوات حتى صار الصراخ عندهم معتادًا !
مع استمرار الضربتغيّرت نبرة صراخهاواستفرغت ما في معدتها ثم سقطت مغشيا عليها, ارتعد أخوها وفزع , شعر بأنه مزّق شيئًا ما بأحشائها, أو ربما حطم جزءًا ما برأسها , هرع إلى الطبيب فلما حضر أخبرهم بأن هناك اشتباه بارتجاج في المخوتحتاج إلى تدخل جراحيّ في أسرع وقت, ثم أعطاهم موعدًا بعد يومين لتنفيذ العملية عنده في المشفى , مع مسكّنٍ مؤقتٍ للألم .
لما أفاقت آسيا اتصلت بآسر من هاتف أختها وهي تتأوّه من الوجع, وتكاد تذوب خجلًا منه وأسفًا , أخبرته بما حدث , وبالعملية الطارئة , فزع وطلب رؤيتها فتحاملت على نفسها وتسللت لمقابلته في مكانهما المعتاد , فلما التقته بكت خجلى فتبسّم وقال لها :
- أعلم أنه لا ذنب لكِ , لا تعتبري نفسك طرفًا آخر يحتاج للاعتذار, أنا وأنتِ طرف وهم طرفٌ آخر .
استمرّت بالبكاء وأخبرته أنها خائفةٌ من إجراء العملية , فقال :
- شكّة دبوس , ستخرجين بسلامة الله لتجديني أنتظر بسمتك !
تابعت دموعها التدفق عنوة من بين أجفانها, وأخرج لها آسر ظرفًا فيه نقود , ثم دفعه إليها وقال :
- هذا لأجل العملية , أعلم أنه لا يتوافر معك مالٌ الآن .
تمنعت, وخال لآسر أن الشمس تضحك, فضحك قائلًا :

- ستردينها رغمًا عنكِ فيما بعد لا تقلقي , هي قرض لا هدية .
نظرت إليه باسمة ودموعها على خديها وقالت :
- كاذب .
فتبسم وقال :
- طبعًا !
صمت قليلًا ثم تابع :
- أعدك أني سأجد طريقة أخرى لاقناع أهلك بالزواج منك , لكن بعد العملية , أعدك أني لن أيأس .
وقبل أن ترد فوجئت بأخيها خالد يقف أمامهما وعيناه تقسمان بالشر والضرّ , علمت أنه كان يتبعها خلسة حتى وصل إليهما , أمسك بعنق آسر وصفعه على وجهه بلا سابق إنذار , أما آسر فتبسّم ولم يقاوم , صرخت آسيا فلطمها خالد على وجهها , واستمر بضرب آسر ضربًا مبرحًا نزف منه فمه ووجهه , واستمر آسر بالتبسّم كالأبله دون مقاومة لئلا يتجمع الناس فتفتضح آسيا , واستمرّ خالد بضربه وسبه , وتجمّع الناس رغم حرص آسر , بصعوبةٍ خلّصوا آسر من براثن خالد مع استمراره في سبّه وقذفه والسعي جاهدًا لضربه, وجر خالد أخته إلى البيت وهو يضربها ويلعنها ويتوعّدها , وفرت آسيا من يده فسبقته إلى المنزل , ونظر آسر للأرض ثمّ انصرف .
لحق بها خالدُ في البيت , وقبل أن يهاجمها رفعت سكينًا وصرخت في وجهه بما تبقى لديها من طاقة وعزم فأفزعته , قررت أن تخرج له

ولأبيها ما خزّنته في قلبها طوال هذه السنوات , قالت وهي تصرخ وتبكي:
- أيها السكير القذر , أقسم بالله أن يستقر هذا السكين في قلبك لو لمستني , اللعنة عليك وعلى هذا البيت الذي لم أجد فيه يومًا سكنًا ولا بيتًا , هل حقًا تريد أن تقنعني بأنك تغار مثل الرجال ؟ ألأنك رجل تعود إلينا كل يومٍ مخمورًا سكران؟
وقفت أمها تبكي وتترجاها أن تصمت , فلم تلتفت وتابعت :
- أم تريد أن تكون مثل أبيك حينما يستعرض فتوّته ورجولته بضرب أمك ؟ دع الغيرة للرجال , واجلس أنت وهذا القذر كالنساء , واعلما أن هذا الذي سببتماه بالأمس نعله أشرف من رأسكما ..
بأي حقٍ تعتبران أنفسكما مسؤولين عني , وأنتما طوال حياتي سببتما لي الألم والعار والفضيحة , أنتما السبب في أني لم أتزوج إلى الآن , فكلما تقدّم لي عريس فرّ مني فراره من الأجرب بسبب بيتي القذر ! وهذا الأخير لم تتركا له الفرصة ليثبت لكما أنه أقدر على إدارة بيت منكما , وأقدر على تحمل مسؤوليتي وأولادي منكما .
اقترب خالد منها بغيظ فهددته بالسكين وأوعدته فتراجع , وقبل أن تعود لمعركتها اشتدّ عليها ألم الجرح ثانيةً فصرخت وسقطت على الأرض وهرولت أمها إليها تبكي وتصرخ , وتسب وتلعن , ثم أخذتها إلى الغرفة وأعطتها المسكن , وتناولته وهي تبكي وتقول : لا تقلقوا .. غدًا سأموت وترتاحوا .

*****

سأله أبو قتادة مترددًا, قلقًا :

- لماذا تقول أن الدولة الإسلامية ليست دولة الخلافة ؟

فأجاب مصطفى الشريف :

- يا بني .. هل تظنّ أن الأمر بتلك السذاجة ؟ هل تظن أنه إن اتفق خمسة آلاف شخصٍ على أن منهم واحدًا هو الخليفة يصير بذلك خليفة المسلمين ويجب على المليار ونصف مسلم أن يبايعوه؟ ألم يُطرح في ذهنك هذا التساؤل من قبل؟ ما رأيك لو جمعت أصدقائي وفعلتُ نفس ما فعلتم وطلبت من العالم كله أن يبايعني كأميرٍ للمؤمنين !

أجابه أبو قتادة :

- لكننا نحكم بما أنزل الله وسنطبق الشريعة بعد أن عطلها الطواغيت !

- هذا يا بني لا يكفي ! لا يكفي أبدًا ليكون تجمعكم المسلح هو دولة الخلافة !

أولا : الخلافة لا تنعقد لأحدٍ إلا باجتماع أغلب المسلمين عليه, لا تنعقد بأن يتفق بضعة آلافٍ على أن منهم خليفة ثم يجبروا المسلمين على مبايعته ..

شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه يقول : -ولو قُدّرَ أن عمر وطائفةً معه بايعوه, وامتنع سائر الصحابة عن البيعة, لم يصِر إماما بذلك, وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة- .

فهذا شيخ الإسلام ينقض داعش من أساسها, يقول بأن خلافتكم باطلة لا أصل لها, ولا يمكن أن تكون خلافة إلا بمبايعة جمهور عقلاء المسلمين !

نزلت على أبي قتادة كالصاعقة, وتابع مصطفى :

- ثانيًا : حتى بمبايعة جمهور المسلمين, لا يصير الخليفة خليفةً إلا لو كان معه سلطان وقدرة يقدر بها على الحكم, لكن ماذا نفعل برجلٍ بايعه الناس وهو مسجونٌ أو محاصر أو غير متمكن من الحكم؟ هذا لا تثبت له الولاية الشرعية أبدًا, لأنه لن يستطيع أن يقيم حقوق المسلمين

لو افترضنا أن داعش خلافة, فلماذا يبايعها أهل مصر؟ ماذا ستقيم داعش لرعايا مصر من رعاية دينهم ودنياهم؟

وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول : -والقدرة على سياسة الناس إما بطاعتهم له وإما بقهره لهم, فمتى صار قادرًا على سياسة الناس إما

بطاعتهم له وإما بقهره ؛ فهو ذو سلطان مطاع إذا أمر بطاعة الله .
-.
فأين أنتم من هذا وأنتم لا تكادون تنامون في بيوتكم آمنين فضلًا عن أن تحفظوا دول الإسلام لتتولوا الخلافة عليها ؟! ها هو شيخ الإسلام يهدم خلافة داعش من أساسها للمرة الثانية !
وفوق ذلك !
فلا تجب البيعة على المسلمين لخليفة حتى تستقر له السلطة ولا ينازعه عليها أحد..
ولهذا لم يبايع ابن عمر رضي الله عنه لابن الزبير رضي الله عنه مع امتلاكه جميع البلدان إلا دمشق وما حولها.
وقد سأله أحد الناس : يا أبا عبد الرحمن ما يمنعك أن تبايع أمير المؤمنين -يعني ابن الزبير-؟ فقد بايع له أهل العروض، وأهل العراق، وعامة أهل الشام؟
فقال: والله لا أبايعكم وأنتم واضعوا سيوفكم على عواتقكم تصبب أيديكم من دماء المسلمين!

فإن كانت البيعة لا تجب لابن الزبير إلا حين تستقر له السلطة, فهل تجب لأبي بكر البغدادي !
اهتزّ أبو قتادة هزّات عنيفة, وتضعضع قلبه من مكانه, وقال لنفسه لماذا عرّضتك لمثل هذه الشبهات المزلزلة؟ وأخذ على نفسه عهدًا

أن لا يعود لنقاش مصطفى, وحدّث نفسه بأنه سيستشهد قريبًا فليحتفظ بيقينه ليلقى به ربّه, واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم, ثلاثًا ثم ثلاثًا ثم ثلاثًا ! واستعد لينهي النقاش للأبد, وقبل أن يضع يده على لوحة المفاتيح ليكتب فوجيء بأبي العباس وأبي القعقاع يستأذنان ويدخلان الغرفة!

تذكّر أبا دجانة وجهادًا, ومقتله وضياعها, وتساءل أين تُراها الآن؟ وانقبض قلبه ثم انتفش, ونظر لصديقه وقائده, ونظر لحاسوبه, وقام ثم جلس, ثم قام.. وسار بطيئًا باتجاههما, وتعجّب أبو العباس من حاله, وقال له : ما بك ؟! فصمت أبو قتادة, ثم صمت .. ثم انفجر باكيًا !

*****

دخل أبو قتادة إلى مفتي السريّة , الشيخ أبي الفضل , ليعيده كما قال أبو القعقاع إلى رشده بعد أن استحوذ عليه الشيطان وتسرّبت إليه أفكار الصحوات الزنادقة .
جلس أبو قتادة حيران خائفًا , سمع من أبي الفضل وعيدًا وتهديدًا وترغيبا وتطبيبًا , وآياتٍ من القرآن سردها , وأحاديث أوردها , وأقوال علماء أتى بها من بطون الكتب صدّر بها جمله وختمها , ساعاتٍ استمرّ فيها النقاش , لم يتركه بعدها الشرعيُّ مفتي السريّة

إلا وقد اطمأن وتيقّن أن رأسه غسلت مما دخلها بماءٍ وثلجٍ وبرَد , وخرج أبو قتادة يستغفر الله مما كاد يقع فيه , ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وهمزه ونفثه !
واستقبله أبو القعقاع بالخارج مستبشرًا متبسمًا , فاحتضنه أبو قتادة وبكى , وقال له أبو القعقاع :
- لا تبكِ , لا ينبغي أن تبكِ , فقط احمد الله على العافية .
- وأحمده أن وفقني لمثلك يا أبا القعقاع .
تبسّم أبو القعقاع وقال:
- لكن لا تتم توبتك حتى تريح الأمة من هذا المنافق الذي كاد يوقعك في فخاخ الشرك , وكم أوقع قبلك وكم سيوقع بعدك !

فهم أبو قتادة ما يرمي إليه أبو القعقاع إلا أنه أبدى التغابي وعدم الفهم فقطع أبو القعقاع الشك باليقين وقال:
- ستحزّ عنق هذا المنافق .
تردد أبو قتادة وقال وجلًا :
- لا أستطيع يا أبا القعقاع , هذا أمرٌ صعبٌ على نفسي !
ضحك أبو القعقاع , ثم وضع يده على كتفه , وأخذه ودخل به مرة أخرى للمفتي .

*****

في المشفى, بعد العملية .. يترقّب الجميع أن تقوم آسيا, طال الوقتُ ولمّا تفق, بدأت تهذي وتغمغم بكلامٍ غير مفهوم, قالوا من آثار البنج, ومع طول الوقت بدأ الشكّ والخوف فجاء الطبيب, فحصها فتغيّر وجهه, ثم قال أنها دخلت في غيبوبة مؤقتة, وتحتاج لعناية لتفيق منها !

انقبض قلب أمها , وظهر التوتر على وجهي أبيها وأخيها , وعلت غمغماتها , فاقتربت أمها لتميّز ما تقول .. أدنت أذنها من فم آسيا فوجدتها تهمس : آسر! آسر! أنا آسفة يا آسر!

صعقت أمها وتغيّر وجهها , وقبل أن يسألها زوجها الحاج صبري ارتفع صوت آسيا وصار أكثر وضوحًا , وهي تنادي بألمٍ : آسر! آسر!

تغيّر وجه أخيها, وارتعد قلب أبيها, وقالوا لأنفسهم هلوسات البنج وما نحن بتأويل الهلوسات بعالمين! ,يرعى الناس الكذب ويعلفون الضغينة ويقتلون الحب صبرًا!

استمرت في هلوساتها, وعاد الطبيب ليتابع حالتها فسمعها تقول : آسر

سألهم :

- من آسر ؟!

استبق خالد الإجابة فقال :

- لا ندري , إنها تهلوس!

تفرّس الطبيب وجهه فعلم أنه لا يقول الصدق, تبسّم وقال :

- عموما آسر هذا شخصٌ عزيزٌ عليها , ووجوده سيساعد على شفائها , ولا أخفيكم سرًا .. الحالة في وضعٍ خطير .

ثم انصرف !

استمرت الصدمة, وصاحبها الصمت, وخالجها الألم والحسرة والندامة ..

صرخت فيهم أم آسيا وأختها, وقالتا سنحضر آسر, فانفجر خالد صارخًا في المقابل يقسم ويتهدد ويتوعّد, وذرف الحاج -صبري- الدمع ففوجئ الجميع, قالت أختها :

- ستقتلونها بعنادكم, اللعنة عليكم !

وصرخت أمها وناحت حتى ظن من بالمشفى أن آسيا ماتت, جاءت ممرضة تطمئن على نبض القلب, وذكرتها بالله, وطمأنتها, ولا جدوى !

استمرت المعركة العائلية حتى خار الحاج -صبري- وقال :

- أحضروه !

فوجئ خالد, فسبّهم جميعًا وانصرف ..

اتصلت نور أخت آسيا بآسر .. آسرُ أيها الصديقُ أفتنا ! , كان ينتظر بقلقٍ إفاقة آسيا لتتصل به بنفسها, سمع صوت أختها فانصدع قلبه وظنّها تنعي أختها, سريعًا أخبرته بالوضع فجاء لفوره ولم يعقّب .. دخل وعين أبيها ترمقه بقسوة , وعين أمها تتوسل به إلى الله ليشفيها , ونور تبكي متألمة بجواره , وعاد خالد وعيناه تقسمان بالبوار !

سمعها تنادي باسمه, فأحضر كرسيًا وجلس عند رأسها ينزف الدمع, يستعيذ بالله من شياطين الجن والإنس !
وضع رأسه بين كفيه ونظر إلى الأرض وصمت, يتذكّر أخته جهادًا ويفكّر ماذا سيفعل, ثم ينتبه لآسيافكأنها شعرت به فتنطق باسمه مرّة بعد مرة فتنهارُ حصون قلبه جدارًا بعد جدار , تأسفت له فبكى وارتعد , والأعين ترقبه والقلوب لا ترحمه .
بالليل أنّت ففزعوا واطمأن, بكت فتذكّر لما كان يضحكها حينما تبكي فيفسد عليها بكاءها , فبكى وأنّ ..
استمرّ بجوارها يومين, لا يقوم من مكانه إلا للصلاة, لا يأكل, ولا يشرب إلا ما يقيه الموت ..
كانت أمها تنام من التعب, وكان لا يغمض له جفن من الحبّ, قال لنفسه : ماذا لو كنا في زمانٍ غير الزمان ومكانٍ غير المكان ؟ بأي ذنبٍ يفعل بنا هذا وأنا لم أطلبك إلا حلالا لا شبهة فيه ؟ يشهد الله على أناملي أنها لم تمسّ أناملك قط خشيةً منه ورهبة !
أخطأنا لأننا تواصلنا قبل الخطبة؟ نعم .. لكن أردتُ أن نصلح خطأنا ونتزوج وآخذك بكلمات الله, فلم أرَ إلا حمقًا وجهلًا , في مجتمعٍ يقبل الحرام ويلفظ الحلال, لا لشيء إلا لأننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون !
أيحجبني تاريخُ ميلادٍ سخيف على شهادة الميلاد من أن أتزوجك ؟! لله في خلقه شؤون !

فاضت عيناه دمعًا حارًا يخرّ على صفحات قلبه فيحرقها, تئن حبيبته بجواره فيقول يا ليتني كنت ترابًا !

أنشد يقول ما قاله قبله المجنون , مجنون ليلى :

- وقالوا لو تشاءُ سلوتَ عنها .. فقلتُ لهم فإني لا أشاءُ

وكيف وحبّها عَلِقٌ بقلبي .. كما عَلِقت بأرشيةٍ دلاءُ

لها حبٌّ تنشَّأ في فؤادي .. فليس له, وإن زُجرَ, انتهاءُ

مضت الساعات بين تفكيره وبكائه, وعويل أمها, وغضب أخيها المكظوم, وندمٍ بدى على وجه أبيها كاد يذهب بعقله, وذهول أختها عن الدنيا ..

فجأةً علت صافرة جهاز نبضات القلب, فزع آسر ونظر إليها فوجدها تبتسم, وتنطق شيئًا خافتًا, جاءت الممرضات يهرولن, والأطباء يسعون فزعين .. واقترب آسر منها ليسمع ما تقوله , ففتحت عينيها بصعوبة بالغة, ونظرت إلى وجهه وقالت :

- ربّما في مكانٍ غير المكان , وزمان غير الزمان .. عند الله العليم الرحيم .

وتوقّف النبضُ, وارتفعت الصافرة, وانفجر الصراخ, وهاج خالد وهجم على آسر فأبعده الأطباء والممرضون, فخرج آسر مذهولًا, يتهادى بين جدران المشفى, يسير في الشوارع مذهولًا, مشلول العقل, عاجزًا عن الكلام, فاقدًا للوعي والسمع والبصر, وتذكّر فجأة جهاد, ثم آسيا, ثم خرّ على الأرض مغشيًا عليه في منتصف الطريق !

*****

استقرت أم مالك ورهى في القاهرة , بعدما انسلتا في ظلمة الليل فارتين من بورسعيد , كان في جيب الحاجّ سلّام خمسة آلاف جنيه , وكانت رهى قد ادّخرت مثلهم , وبمجرد وصولهما أنشأتا بهذا المبلغ الضئيل عربة للمأكولات السورية في حيّ السيدة زينب , واستأجرتا حجرة ليست بأفضل من أختها السابقة , لكن يكفي أن ليس فيها الحاجّ سلام .

وكعادة الشاميين , لا يفشل لهم مشروع طعامٍ قط! سيّما مع شعبٍ يوقّر الأكل ويحترمه مثل الشعب المصري , فبدأت العربة منذ يومها الأول تجذب الزبائن , وكأنّ الزمان يري أم مالكٍ ورهى بسمة خفوتة لا تكاد تستقر , وخال لرهى بسذاجة فطرتها أن العربة تتوسع شيئًا فشيئًا, وأنها فتحت لها فرعًا آخر في باريس , وثالث في دبي , ورابع في جمصة .. ثم أفاقت وتذكّرت أنها في يومها الأول !

ومع ذلك لم يمرّ أسبوعٌ إلا وقد توسّعت العربة, وتضخّم المشروع , فاشترت أم مالكٍ كرسيين ومنضدة صغيرة ليجلس عليهما الزبائن أثناء الأكل , كما اشترت دلوًا كاملًا من المخلل !

ومرةً في الصباح قبل أن يأتي الزبائن , جلست أم مالكٍ تحكي لرهى قصة زواجها من أبي مالك , وعجبًا أن انجذبت رهى لقصةٍ من قصص أم مالك , قالت أم مالك :

- مات أبي وأنا ابنة خمس سنوات , وتقدّم أبو مالك ليخطبني من أخي الأكبر غسّان , وكنت وقتها بنت اثني عشر عامًا , لم أرد أن أتزوّج , وأبغضت أبا مالكٍ بغضًا شديدًا , لكنك تعرفين أن النساء على أيامي لم يكن لهنّ رأي , فتزوّجته رغم كل شيء .

صمتت فقالت رهى بفضول :

- ثم ماذا ؟

تبسمت أم مالكٍ وتابعت :

- ثم صار حياتي كلها , الحب يا بنيتي لا يأتي من أول نظرة , أنا لا أعترف بهذه السخافات , الحب بيتٌ جميل يبنيه الزمان لبنةً لبنة , بطول المعشر والملازمة , بكلّ بسمة نتبسمها معًا , وضحكة نضحكها معًا , وأكلة نأكلها معًا , وشربة نشربها معًا .. الحبّ عُمرٌ ومعاشرة .

الفصل الرابع

مرّ شهرٌ, ورفع المؤذن ظهر عاشوراء . .
وفي سيناء كان أبو قتادة يسأل أبا العباس, أتُرانا على حق؟! , تعجّب أبو العباس وقال أفي ذلك شكّ؟!
تابع أبو قتادة حشو مسدّسه وتهيئته للعملية, ثم نظر للمقداد وقال :
- أتعلم ؟ لو لم نكن على حقٍّ فقاع الجحيم ينتظرنا !
ضحك أبو العباس كثيرًا, ثم صمت, ثم ضحك قليلًا, ثم قال :
- إن كان قاع الجحيم ينتظر من يطبق شرع الله, فلمن خُلقت الجنة؟
صمت أبو قتادة قليلًا, وتابع حشو مسدسه, ثم قال :
- ربما خلقت لراعي غنمٍ يسيرُ به منفردًا في شعاب الجبال, يقتات

بألبانها, ويأكل من لحومها, ويده بيضاء !
قال أبو العباس : لا خير في يدٍ بيضاء لم تتخضّب بدماء الكفار!
وكان آسر قد نزل من بيته يومها, ليسير -كعادته مؤخرًا- وحيدًا في شوارع القاهرة, يستلذ باستعادة ذكريات آسيا, يغمض عينيه ليرى صورتها, منقوشةً برقة على جفنيه من الداخل .. أحيانًا يسمع صوتها فيبتسم, ويشتاق إلى النوم .. حيث اللقاء !
ثم يقاطعه طيفُ جهاد, ترى ما الذي حدث؟ أين هي؟ أثمّت لقاءٌ قبل يوم القيامة؟ كيف أصل إليها ومن أين أبدأ؟
توجّه إلى عربة طعامٍ سورية, اعتاد الأكل منها منذ أسبوعين, في حيّ السيدة زينب !
ما أن وصل حتى غمزت أم مالكٍ رهى وهي تحضّر الساندويتشات, وقالت بمكرٍ : قد أتى العريس يا عروسة !
ضحكت (المِعلمة) رهى وضربت كتف خالتها!
جلس آسر شاردًا على أحد الكراسي, ونزل أبو قتادة وأبو العباس من الشقة بعد أن أعدّا سلاحهما, واستعد الشيخ مصطفى الشريف لدرسه بعد العصر في المسجد المجاور لمسكنه بسيناء, جاءت رهى تسأل آسر : ماذا ستأكل اليوم أيها المليح؟ فقال أبوقتادة للمقداد .. تذكّر أني قلتُ لك ينتظرنا الجحيم إن كنا على خطأ !
وضع الشيخ مصطفى الشريف عطره, ومرّت نسمة فاستنشقت رهى طيب رائحة آسر, وقال أبو العباس إن الله لا يضيع المطبقين

لشرعه, وقال آسر : منقوشة زعتر وساندويتش فلافل, ابتسمت رهى فأسرعت الدراجة الناريّة بأبي قتادة وأبو العباس .. وخطت قدما مصطفى الشريف على سلالم العمارة ببطيء وهو يراجع ورقة العناصر التي سيلقيها في درس العصر, قالت رهى لأمها : منقوشة زعتر وواحد فلافل ياموووا!, وبحركة مفاجئة سحبت أحد الكراسي وجلست أمام آسر على نفس الطاولة ! فوجئ آسر .. فخرج مصطفى الشريف من بوابة العمارة, قالت رهى : كيف حالك أيها المليح؟ فانتفض جسد أبي قتادة لما رأى الشيخ مصطفى بعد طول غياب !
قال آسر : بخير الحمد لله , فردّ أبو قتادة على أبو العباس : لن أستطيع .. اقتله أنت ! , بغضبٍ ردّت رهى : أهكذا علموك أن تكلم الفتيات ؟ تبسّم أبو العباس وقال : بل ستقتله أنت ! وتبسّم آسر وردّ : آسف أنا لم أعتد على الحديث مع الفتيات .. , تعجّبت رهى وقال أبو قتادة أقول لك لا أستطيع! فرد أبو العباس : حطّم صنم الشيطان داخلك, اقتله يا أبا قتادة .. اقتله فإنه عدوٌ لله ! رد آسر قبل أن تنطق رهى : كيف كان يجب أن أرد؟ , فقال أبو قتادة ودموعه تنهمر .. لا أستطيع .. ومشى مصطفى الشريف تجاههما وهما مختبئان, قالت رهى : الفتيات تحبّ الردود التي تفتح كلامًا آخر, لا التي تنهي الحديث! كان ينبغي أن تقول : بخير وأنتِ؟ ضحك آسر, فقال أبو العباس بحدّة لأبي قتادة : هكذا لن نلحق به , هيا اقتله ! أجاب أبو قتادة : اقتله أنت! , فقال آسر : عفوًا .. كما

قلت لكِ لا خبرة لديّ, قالت رهى : أرأيت ؟ هذا ردٌ آخر لا تحبه الفتيات! , رد أبو العباس : أقسم أن لن يقتله غيرك ! لا تجعل لغير الله سلطانًا عليك ..

واستمر مصطفى الشريف بالمشي فاقترب, وتبسّم آسر وقال: يبدو أن الزعتر والفلافل عندكم مشغولان اليوم, فضحكت رهى وقالت: أنا فقط أراك تأتي هنا يوميا منذ عشرة أيامٍ, أحيانًا تأكل وأحيانا تبكي صامتًا تظن أن لا يراك أحد, ودائمًا تشرد .. ! ,ناول أبو العباس المسدس بعنفٍ لأبي قتادة وقال: هيّا اقتله! اقتل الكافر الزنديق الذي نذر حياته ليحارب دولة الإسلام ويضل الناس عن دين الله!

اهتزّ قلبُ آسر بعنفٍ, وقبض أبو قتادة على مسدّسه بقوة وأغمض عينيه يسمّي الله ودموعه منهمرة, وفجأة تذكّر جهادًا فارتاع وارتعد!, ثم فتح عينيه فرأى الشيخ مصطفى الشريف, بوجهٍ أسمرَ صبوحٍ ولحيةٍ مهذّبةٍ تتخلها شعيرات بيضاء, وجسدٍ نحيلٍ منهك, ولسانٍ كما عهده لا يكفّ عن ذكر ربه, ومصحفٍ وسواكٍ في جيبه الأعلى!

ذرَفَ آسر دمعةً رغمًا عنه, وزادت قبضةُ أبي قتادة على مسدسه وزادت دموعه, وقالت رهى: ما اسمُك؟! فرد: آسر! ,وهز أبو العباس كتف أبي قتادة وقال توكّل على القوي المتين, فقالت رهى: آسر! ارفع عينيك من الأرض!, وصوّب أبو قتادة مسدسة بين عيني مصطفى الشريف, رفع آسر عينه فلاقت عين رهى, فاستقرت الرصاصة في

رأس مصطفى الشريف, وانفجر أبو قتادة بالبكاء, وطار أبو العباس بالدراجة النارية وخلفه عليها أبو قتادة, وخرّ الشيخ مصطفى فسالت دماؤه على التراب, في يومِ عاشوراء وهو صائمٌ في طريقه لصلاة العصر! ,وقالت رهى لآسر : كلّنا لديهِ آلامٌ.. والسعيد من يحسن دفنها, وقال أبو قتادة للمقداد وهو ينتحب ويبكي : الجحيم ينتظرنا !

ورد آسر : أخشى أن يزول الألم, لم يبقَ لي تذكارٌ إلا الألم!

تمت

للتواصل مع الكاتب :

Facebook : https://www. facebook. com/H. bokhary

Ask :http://ask. fm/HassanAlbokhary

تقييمك للكتاب

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجلش ..
أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك
تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
website : www.fasla.org
E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com
Facebook.Com/Fasla.Pub